ميريت

روايـة

يوتوبيا

أحمد خالد توفيق

مزيد من الكتب المجانية

Books-Sea.com

يوتوبيا
رواية

أحمد خالد توفيق

الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
(c) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.net
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٧٣٩٣

الترقيم الدولى: 977-351-391-2

Books-sea.com

أحمد خالد توفيق

يوتوبيا

رواية

دار ميريت
القاهرة 2008

Books-sea.com

اهداء الى

Looloo

و كل المتواجدين
بالمقر السرى
لمكتبة الديفيدى

LL

Books-sea.com

يوتوبيا المذكورة هنا موضع تخيلي، وكذلك الشخصيات التـــي تعيش فيها ومن حولها، وإن كان المؤلف يدرك يقينًا أن هذا المكان سيكون موجودًا عما قريب. أي تشابه للمكان والشخصـــيات مع أماكن وشخصيات (في الواقع الحالي) هو محض مصادفة غير مقصودة.

Books-sea.com

Books-sea.com

حقًا إنني أعيش في زمن أسود..

الكلمة الطيبة لا تجد من يسمعها..

الجبهة الصافية تفضح الخيانة..

والذي ما زال يضحك..

لم يسمع بعد بالنبأ الرهيب ..

أي زمن هذا ؟

برتولت بريخت

Books-sea.com

Books-sea.com

الجزء الأول

الصياد

Books-sea.com

Books-sea.com

-1-

كأنـــه الملصـــق الشـــهير القديم لفيلم الفصيلة .. هذا ما جال بذهني وقتها ..

السبب هو أنني أعلق هذه الصورة فوق فراشي ..

ولـــيام دافو ينظر للسماء – التي لم يعد يفصله عنها شيء – رافعًـــا ذراعيه كأنه في صلاة أخيرة، وقد جثا على ركبتيه بعد ما مزقته الرصاصات .. عندما يصير الموت أكبر من الحياة ذاتها.. عندما يصير الموت ضربًا من الجمال الفني ..

المشهد كان مهيبًا خاصة أنه ليس على شاشة التلفزيون.. كل شيء حقيقي مروع قاس .. و..

وفاتن..

لا تنكرن هذا من فضلك..

رأيـــته وهـــو يـــتوقف وقد أنهكه التعب .. بفقر الدم والجوع اللذين يفتكان به لا يمكنه أن يخوض هذه المطاردة للنهاية.. رأيته ينحنـــي ليلصـــق كفيه بركبتيه طلبًا للهواء، ثم رأيته ينظر لأعلى بيـــنما الهليوكوبتر تدور حوله في تؤدة ودون قلق .. إن معها كل الوقت .. لا يوجد هدف أوضح من رجل مجرد من السلاح وسط رمـــال الصحراء .. رجل أنهكه الركض ...رجل أنهكه الجوع .. رجل أنهكه القنوط ....

Books-sea.com

لا تقاوم يا أحمق !... ما الذي تمنحك إياه لحظات أخرى من العـيش مـع الأغيار ؟.. ما الذي لم تحققه في سنواتك العشرين السـابقة وتنوي أن تحققه لو ظللت حيًا ؟... فرارك هذا لا يختلف عـن فـرار الصرصور على جدار مطبخ، أو أميبا تنزلق تحت عدسـة مجهـر ... صرخة غريزة لا أكثر .. إنه تفاعل التحاشي الـذي زرعته الطبيعة فيك، وعليك أن تتعلم كيف تهمله كي تظفر براحة استحققتها...

انطلقـت الرشاشات فنظر لأعلى .. نعم .. هذه الطلقات من أجلك أنت ..

ترسـم ذلك الخط الطويل على الرمال .. الخط الذي يمر بك أنت ...

وليام دافو في ملصق الفصيلة ...

خطـر ببالـي إن مخرجـي السينما حمقى عندما يظهرون

Books-sea.com

يرفع سبابته لأعلى ويصيح: -" !! Lovely"

ثم يركض نحو الطائرة وفي ثوان يرتفع الوحش الأسطوري بعـد مـا أنهـى مهمة الصيد ... كل هؤلاء الحراس من رجال (المارينـز) المـتقاعدين ولا أعرف سبب ذلك، لكنهم بالتأكيد لا يفتقرون إلى اللياقة البدنية..

شهقت جرمينال رعبًا ..

شهقت جرمينال نشوة ...

الموت .. اللعبة العظمى التي لم نجربها بعد .....

أقف أمام المرآة ..

أتأكد من أن شعري حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة .. أصلع على جانبي الرأس والخصلة البنفسجية العالية في المنتصف مـثل ديـك بري ثائر.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودوو .. لست عابد شيطان .. فـي الواقـع أنـا لا أصدق وجود شيء على الإطلاق، لكن هذه

Books-sea.com

ـ" لا تحاول خداعي .. كلنا يعرف ما يفعله اللصوص عندما يتسللون لنا .. ومتى فرغوا من مهمتهم جاءت طائرات المارينز لتنقذهم مع صيدهم .. ماذا يقول لك أبوك عندما تعود له بواحد منا؟.. (كخ) ؟.. عيب ؟ .. يا للقسوة !"

نظرت إلى جرمينال فنظرتْ لي ..

شعور بعدم الراحة يغمرنا .. نحن لم نخدع أحدًا. الآخرون كانوا سيمزقوننا في الحال، أما هذا فيدخر لنا مصيرًا لا أعرف ما هو لكنه بطيء .. بطيء وكل ما هو بطيء قاس ...

ـ"ما اسمك ؟"

قلت بلا اكتراث:

ـ"علاء"

ابتسم في خبث وقال:

ـ"طبعًا لو حسبت أنني سأصدق لحظة واحدة أنك علاء فأنت ترى في وجهي غباء، لكن لا يهم .. لا قيمة للأسماء إلا في جعلك تعرف أنني أوجه لك الكلام .. سنفترض أنك علاء ولتكن هي مها .. علاء ومها .. جميل .. هل أنتما أخوان ؟.. سأفترض هذا كذلك .. لكن لو لم تكونا أخوين فلتعلما إنني لن اسمح بأي شيء تحت سقف بيتي أو تحت قماش عشتي، لأنني لم آت بكما لهذا الغرض، ولا أعيش وحدي"

سمعنا حركة ودخلت الكوخ فتاة في العقد الثاني من العمر .. يبدو أنها مليحة وإن كانت قذارة أسمالها تخفي أي حسن .. القذارة جعلت ثوبها صلبًا لا يرف ولا يهتز كأنه من جلد مدبوغ.. نظرة

Books-sea.com

الحيوان الخجول الوجلَ المتواري في الدغل تبدت في عينها عندما رأتنا .. فيما بعد عرفت أن هاتين العينين تنطقان بكل شيء كأنهما متصلتان بالروح مباشرة ...

قال لها باسمًا:

ـ"هذه أختي .. تعالي يا (صفية).. كنت تسألين عن منظر هؤلاء الأثرياء الذين يقيمون في مستعمراتهم الخاصة .. هذان منهما !... "

نظرت لنا في عدم فهم .. نحن نبدو في حالة أسوأ منها ..

قال الفتى:

ـ"هذا لزوم التنكر .. نوع من الشحم الذي يضعه الممثلون على وجوههم.. لقد جاءوا ليظفروا بواحد منا يتسلون به .."

وبدأ انفعاله يتزايد رويدًا رويدًا كأنه يبصق الحقد الذي يتراكم فوق روحه:

ـ"لماذا لا تتركوننا وشأننا ؟.. سرقتم منا الماضي والحاضر والمستقبل .. لكنكم تكرهون أن تتركونا نعيش .."

وقبل أن أفهم من أين جاء ولا متى وجدت نصل سيف عملاق تحت ذقني .. ومن بين أسنانه الصفر قال:

ـ"هل ترى أن آخذ منك تذكارًا كما تفعلون معنا ؟... إن أذن فتاة ستكون تذكارًا ممتازًا .. أذن دقيقة حمراء نظيفة .. سوف يحسدني الجميع عليها وربما اقترضوها مني .."

ثم انفجر في ضحك وحشي .. ضحك وحشي .. وحشي ..

Books-sea.com

ظللنا صامتين.. كنت حائرًا بين إظهار الخوف فأشعل ساديته أكثـــر، أو إظهـــار اللامبالاة فأثير غيظه وجنونه .. النتيجة إنني ظللـــت أرقب وجهه بوجه كالصخر ليس عليه أي تعبير. ونظرت لجـــرمينال بطرف عيني فوجدت أنها على الأرجح قررت الشيء ذاته ..

في النهاية هدأ .. فقال للفتاة:

ـ"أعدي لنا شيئًا يؤكل .."

* * *

كان اسم صاحبه (عزوز)..

ضـــخم الجثة له عين يسرى ترفّ طيلة الوقت . كأنه يتوقع الشؤم منذ ولد ..

عزوز دخل الخرائب ليقضي حاجته في تلك الليلة عندما ظفر به ثلاثة من يوتوبيا .. اضطروا لقتله عندما لم يتمكنوا من خطفه. ثلاثة فتية أقوياء البنية في عيونهم قسوة وبرود وتعال..

لم يعرفوا هنا ما حل به إلا عندما رأوا طائرة المارينز تحلق فوق الخرائب، وكشافاتها الساطعة تمسح المكان. عندها عرفوا أن أحدهم سقط ..

راح الـــناس يقذفون الهليوكوبتر بالحجارة، وأخرج (مرسي) المسدس الذي قام بصنعه بنفسه في ورشة خراطة، وأطلق طلقتين على الطائرة ..

ارتفـــع الوحش المزمجر وهو يصوب كشافاته في كل اتجاه، ثـــم هبط قليلاً، وأمكنهم أن يروا جندي المارينز الجالس على باب

Books-sea.com

الطائـــرة المفتوح وقد وضع البندقية الآلية بين فخذيه، وراح يطلق الرصاص بلا تمييز على جموع الغاضبين ..

سقط كثيرون .. سقط (مرسي) ذاته ..

والطائـــرة تدخل إلى الخرائب، ثم يتدلى منها سلم من الحبال .. يتســـلق الفتية الثلاثة السلم وهم يصرخون صرخات وحشية، ثم ترتفع الطائرة ..أولاد الكلب حسبوا أنهم يمثلون فيلمًا أمريكيًا عن حـــرب فيتـــنام .. الفتـــية صاروا داخل الطائرة وهم ينظرون من أعلـــى إلـــى الجمـــوع الغاضبة .. أحدهم لوح بشيء دام في يده وأطلق سبة بذيئة ..

هـــرع (جابر) إلى حيث كانت جثة مرسي والتقط المسدس .. ثـــبت يده اليمنى باليسرى وأحكم التصويب، لكن الطلقة التي دوت لم تجرح أحدًا. فقط آلمت ذراعه بشدة ، وتردد صداها على مدى دهور..

وابتعدت الطائرة ..

هـــرع الجمـــيع إلى الخرائب على ضوء المشاعل .. وهناك جـــوار جدار وجدوا جثة عزوز وقد مزقتها الطعنات. فقط لم يكن لـــه ســـاعد .. لقـــد تعب فتية يوتوبيا كثيرًا حتى انتزعوه، ومن الواضـــح أنهـــم لا يملكون خبرة الجزار في التشريح . لكن لو لم يأخذوا تذكارًا لما صدقهم أحد في يوتوبيا عندما يعودون ..

ابتعدت الطائرة ...

لكنها تركت المزيد من الحقد الأعمى الأسود الذي لا يجد قناة ليسيل فيها ...

Books-sea.com

أقسم أخو (عزوز) الذي لم يكن يطيق أخاه وهو حي، ليقطعن ساعد أي واحد من قوم يوتوبيا لو سقط في يده .. الجديد في الموضوع هو أنه سيفعل هذا بأسنانه وليس بالسكين ..

الفرصة لم تأت، وإن ظل الجميع ينتظر في شغف ليرى كيف يحدث هذا ...

يعرفون أنه سينفذ انتقامه حرفيًا، ولكن مع أي واحد تعس من الأغيار يقع تحت يده في المشاجرة القادمة. هناك من سيفقد ساعده لأنه نافس (عزوز) على بقايا رغيف.. هذا مؤكد ..

هذا ما حكاه لنا جابر وأنا قبل أي واحد آخر أعرف أنه صحيح ..

Books-sea.com

-2-

والآن يا صغيرتي انظري لي واتلي صلاتك الأخيرة ..
إن عناقي المشبوب سوف يهشم ضلوعك .. سوف أعتصر روحك ذاتها ..
عندما تصعد إلى السماء مهشمة تستند على عكازين ..
سوف تسألها الملائكة عما حل بها ..
ستقول: لقد نمت مع الشيطان ذاته ..
الشيطان الذي أثملته صرخات العذارى قبل الذبح ..

من أغاني الأورجازم

* * *

الطعام الذي أعدته لنا (صفية) هذه كان خليطًا من الفول والطعمية طعام الأغيار المقدس .. أحيانًا نأكل هذه الأشياء طبعًا على سبيل التغيير لكن ليس بهذه الطريقة !.. بقايا أوشكت على الفساد من عدة وجبات سابقة قامت بخلطها وتسخينها على الموقد، ثم صبت على الخليط زيتًا وملأت قبضتها بالتوابل ونثرتها على الطنجرة..

قال (جابر) مفسرًا:

Books-sea.com

ـــ"نحن نكثر من التوابل لأنها تخفي طعم أي شيء .. تخفي طعم الدجاج الفاسد والفول الحامض والبيض الممشش ...التوابل هي السلعة الوحيدة التي لم يزدد سعرها لأنها ضرورية كي نبقى أحياء .."

وناولني طبقًا وآخر لـ جرمينال.. ثم ناولته الفتاة قطعة من خبز مسود فاحتفظ بها لنفسه ..

كنت قد أكلت الفول من قبل كما قلت .. إنه يساعدك على التغيير عندما تمل إفطارك المعتاد، لكن جهازنا الهضمي لم يعد يتحمله .. لهذا أحجمت عن الأكل لأني لا أعرف كيف سيكون قضاء الحاجة عندهم . لا أعني أنني لا أعرف .. بل لا أريد ..

قال وهو يقلب الملعقة في طبقه:

ـــ"بالطبع لا تفهمان شيئا عن الوضع الذي صرنا إليه .. لكني أكره ألا أخبركما بكل شيء .. الصورة التي تريانها كانت موجودة منذ البداية لكن بشكل غير واضح، ثم تضخمت شيئًا فشيئًا ... يصير الأغنياء أغنى والفقراء أفقر، ثم تأتي لحظة يحدث فيها الانهيار.. ويبدو لي أن هذا حدث في العشر السنوات الأولى من هذا القرن .. فجأة انهار السد .. لم تعد السياحة قادرة على إطعام هذه الأفواه .. إسرائيل افتتحت قناتها التي صارت بديلاً جاهزًا لقناة السويس .. الدول الخليجية نضب بترولها أو تم الاستغناء عنه بعد ظهر (البايرول)، وطردت العمالة الوافدة .. هكذا وجد الاقتصاد عليه عبئًا قاصمًا، وانعدمت الخدمات للفقراء لأن الدولة أعفت نفسها تمامًا من مسئوليتهم، وخصخصت كل

Books-sea.com

شيء .. لم تعد هناك حكومة أو لم تعد هناك حكومة تعبأ بنا .. مع الوقت توقفت الرواتب وتوقفت الخدمات وذابت الشرطة وبالتالي لم تعد علينا ضرائب... كان آباؤكم من طبقة استطاعت أن تستخدم نفوذها للإثراء .. حسابات مصرفية في الخارج .. قروض من المصارف .. احتكار .. كل شيء كان في مصلحة آبائكم وضدنا على طول الخط .. هكذا استطاعت هذه الطبقة أن تتماسك وتزداد ثراء بينما هوينا نحن إلى الحضيض .. لكن الحياة معنا صارت أمرًا مستحيلاً... اضطرت هذه الطبقات إلى أن تعزل نفسها طلبًا للأمان في تلك المستعمرات على الساحل الشمالي، وقد استعملوا رجال المارينز لأنهم يضمنون ولاءهم بينما لا يضمنون ولاء البودي جارد المطحون بدوره .. إن فكرة أن يثور محيط الفقر هذا كانت تؤرقهم .. كل الثورات الشعبية في التاريخ بدأت بذبح الأثرياء .. هكذا تكون مجتمعان أحدهما يملك كل شيء والآخر لا يملك شيئًا .. أهمية المجتمع الثاني لا تزيد على كونه سوقًا استهلاكيًا لا بأس به .. حتى لو كان يعاني الفقر فإن كثافته السكانية تسمح بكل شيء .. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرًا ..."

ثم توقف عن الأكل وسألني:

ـــ"هل لديكم إسرائيليون في يوتوبيا ؟"

قلت في دهشة:

ـــ"كثيرون .. أعز أصدقائي منهم .."

قال وهو يعاود المضغ:

Books-sea.com

ـــ"هـذه سمة مهمة لدى قومك .. لقد اتخذوا موضعهم في الشـرق الأوسـط الجديد الذي كانوا يتحدثون عنه .. المثلث الذي حلمـت به إسرائيل كثيرًا .. مال خليجي (قبل أن ينضب) .. ذكاء إسـرائيلي .. أيد عاملة مصرية رخيصة .. نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إسرائيل عدوًا"

قلت في غيظ من كل هذه المحاضرة:

ـــ"ولماذا أعتبر إسرائيل عدوًا ؟.. هل لمجرد أن هذا يروق لك ؟"

نظر للفتاة وتبادل ابتسامة منهكة وقال:

ـ"نم الآن ..نم .. إن نصف ما أعرفه لا تعرفه .. والنصف الآخـر لا يهمك أن تعرفه .. نم وفي الصباح نرى كيف تخرجان من هنا محتفظين بأذنيكما .."

ثم هز الملعقة في يدي وقال:

ـــ"لا ألاعـيب .. إنهم يعرفون مكاني وسوف يعودون هنا عـندما يزول مفعول الفلوجستين .. عندها يجب أن أكون موجودًا لأحميكما وإلا ....."

وأشار لعنقه بحركة ذات معنى..

* * *

هكـذا لم نستطع الفرار .. لم يكن هذا مطروحًا دعك من أننا كنا مرهقين فعلاً.. ألعن ليلة في حياتنا ونحن نجلس متلاصقين في هذا الكوخ كريه الرائحة لا نجرؤ على أن نتمدد أو نلمس أي جزء

Books-sea.com

مـن الجـدار ... هكذا سوف نبقى حتى الصباح وبعدها ؟.. كل شيء يتوقف على خطة هذا الفتى ...

أنـا لا افهمه .. أعتقد أنه من الطراز المثقف في وسط ليس وسطه .. الخروف الذي يفكر يصير خطرًا على نفسه والآخرين. أنا أعتبر مثقفًا في يوتوبيا .. أنا من القلائل الذين قرءوا كل شيء وقـع تحت أيديهم، لكن هذا لا يجعلني أتعاطف معه ذرة .. ليست الثقافة دينًا يوحد بين القلوب ويؤلفها، بل هي على الأرجح تفرقها، لأنهـا تطلـع المظلومـين على هول الظلم الذين يعانونه، وتطلع المحظوظـين علـى مـا يمكن أن يفقدوه .. إنها تجعلك عصبيًا حـذرًا.. دعك من تحول قناعاتك الثقافية إلى دين جديد يستحق أن تموت من أجله، وتعتبر الآخرين ممن لا يعتنقونه كفارًا ..

كـان شخير (جابر) قد بدأ يتعالى هو راقد في الركن منكمشًا على نفسه..

ماذا يريد من الحياة ؟.. لماذا يظل حيًا ؟

لو هددته بسكين لصرخ ولركل يدي .. لماذا ؟...

فـي الضـوء الخافت جلست أخته جوار جرمينال تنظر لها وهي شبه نائمة..

جـرمينال نائمة كطفل .. تتحرك شفتيها .. تهمس من روح معذبـة: ليلى .. ليلى ... ليلى هي أمها طبعًا (فلا احد في يوتوبيا يستعمل لفظة ماما أو بابا).. للمرة الأولى أراها مجرد طفلة معذبة تريد العودة إلى أمها. لم أر جرمينال إلا ثائرة ملولاً متعالية. لابد من النوم على الأرض كي تظهر لي حقيقتها ..

Books-sea.com

ظلـــت (صفية) بضع دقائق تنظر ثم مدت يدها في حذر إلى شـــعر جـــرمينال وراحت تتلمس خصلة منه .. ثمة شيء حيواني غريب في تلك اللمسة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحســـس أناملي في وجل وفضول عندما كنت في حديقة حيواننا. هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلاً ثم غاصت في النعاس ثانـــية .. لكن الفتاة فعلت بالضبط ما توقعته .. وثبت للخلف مترًا بطـــريقة زادتنـــي اقتناعًا بنظرية القرد تلك .. هذه حركات غير بشرية .. هذه حركات تمت بصلة لانعكاسات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها ..

قالت الفتاة بصوت مبحوح:

ـــــ"شـــعرها جميل .. جميل جدًا ونظيف .. لا أعرف كيف تصورتم أن تخدعونا .. ليس بشعر كهذا !"

ثم مدت يدها إلى يدي فأمسكت بأناملي برفق وقالت:

ـــ"هل ترى الفارق ؟"

نعـــم أرى الفارق .. يد ناعمة نظيفة منمقة ويد خشنة متسخة مقصـــفة الأظفـــار .. الغريب أن الأولى هي يد الرجل والثانية يد الأنثى ..

قلت بلا مبالاة:

ـــــ"كنا في الظلام .. يمكنك أن تخدعي أي واحد في الظلام، وكنا سنعود بسرعة .."

ثم أشرت لأخيها النائم وقلت:

ـــ"من أين يعرف هذا كله ؟"

Books-sea.com

ـــــ"يصـــمم أن يقرأ .. يبحث في القمامة عن كل كتاب قديم فهـــي أشـــياء لم تعد تباع .. هذه مزية أن تهتم بأمور لم تعد تهم أحـــدًا .. علـــى الأقل لن يسرقك الآخرون .. هذه الكتب ملقاة هنا مـــنذ ســـنين بينما لا يمكن أن تترك عود ثقاب من دون أن يأخذه أحد.. إنه ..."

ثـــم راحت تسعل في عمق حتى توقعت أنها ستبصق رئتيها خارجًا .. فانتظرت حتى فرغت وأنا أنظر لها في دهشة فقالت في شيء من الفخر:

ـــــ"هذا درن .. إنه يعود منذ تسعينات القرن الماضي.. ليس لدينا علاج، وهو لا يجدي على كل حال"

ثم أشارت لأخيها النائم وقالت:

ـــ"هو من طبقة (التلامذة).. إنهم هؤلاء الذين دخلوا كليات أو جامعـــات مـــنذ عشر سنوات ثم لم يجدوا عملاً، ولم يستطيعوا أن يصـــنعوا شيئًا بما تعلموه .. لكن علاقتهم بالكتب لا تنتهي .. منذ عشـــرين سنة لم يعد لأحد فرصة على الإطلاق ..لم لو يكن أبوك ضابط شرطة أو رجل أعمال أو تاجرًا يورثك تجارته، فلا فرصة لـــك على الإطلاق وسوف تنضم لهؤلاء الذين يشمون (الكلة) في الخرائب.. "

ثـــم تـــثاءبتْ كـــثور وأغمضت عينها .. رحت أرقبها وأنا جالس.. مليحة بلا شك لكن كيف يمكن أن تجد هذه الملاحة تحت كـــل هـــذه الخشـــونة والقذارة ؟.. أن تزيل كل هذه الأعوام من المعانـــاة والفقر والجوع ؟.. مستحيل .. هذه الفتاة ستتزوج واحدًا

Books-sea.com

مـــن هؤلاء يوسعها ضربًا ثم تموت في إحدى نوبات غضبه .. لا يبدو أمامها مستقبل آخر ..

لا أعتقد أنني نمت ..

لو سألتني لقلت لك إنني لم أنم ..

لكـــن هناك ذلك الضباب الذي يحيط بك ويتأرجح بين الكثافة والخفـــة .. الوعـــي يـــنغمس في مستنقع ويخرج منه .. كذا كان نومي ..

Books-sea.com

-3-

الصـــباح .. لا إفطار لأن وجبة واحدة تكفي المرء .. دعك من أننا كنا زاهدين في الطعام كل الزهد.

الصباح و(جابر) خارج الدار ..

الصباح وصفية تقوم بأعمال غريبة من نوعها ..

تمزق الأوراق من مجموعة من كراسات المدارس القديمة ..

تقطع بعض العلب من الورق المقوى إلى شرائح طويلة ..

تسكب سائلاً أسود في إناء ..

تجمع أعواد ثقاب تالفة في كيس ..

تلحم قطعا من البلاستيك ..

تبري بقايا صابون وتضع عليها بعض البوتاسا الكاوية ..

تسكب بعض الماء في البطارية ..

تمزق قطعة من الليف إلى أشلاء ..

غـــريب حقًـــا هـــو جدول الأعمال المنزلية لدى نساء هؤلاء القوم. قال (جابر) إنه لا يهمني أن أعرف كل شيء وهذا رأيي . ليســـت مـــتابعة نشـــاطات الصراصـــير ذات أهمـــية إلا لعلماء الحشرات..

Books-sea.com

لــن أســألها عــن شــيء .. لن أسألها عن تمزيق كراسات المــدارس القديمة، ولا عن سبب تقطيع علب الورق المقوى.. لن أســألها عــن الســائل الأســود ولا عن سبب جمع أعواد الثقاب الــتالفة.. لن أسألها عن لحام البلاستيك ولا بري قطع الصابون .. لن اسأل عن الماء في البطارية ولا تمزيق الليف ..

صراصير ..

جــرمينال ترانــي أراقــب (صــفية) في فضول .. تهمس جرمينال في أذني:

ــ"لا تقل إنك تريدها .."

قلت إنني لا أمانع .. لها مذاق خاص فريد يختلف عن مذاق الفتــيات اللاتــي اعــتدتهن . اللاتــي لهــن نفس العطر والشعر الحريــري والوشم والقرط في الأنف أو الشفة السفلى .. اعرفهن وأحفظهــن كما تحفظ أنت الدجاج .. لا توجد دجاجة تختلف عن الأخــرى ويمكنك أن تشعر بأنك أكلت هذه الدجاجة من قبل، أما هــذه فلابد أنها تجربة تختلف .. لكني لن أجازف بمغازلتها ونحن تحت رحمة (جابر)..

لــن أجــازف بمغازلتها وطبقات القذارة تغلفها وربما تغلف روحها ..

لن أجازف بمغازلتها وهي تسعل دمًا كل خمس دقائق..

* * *

لــم يفعل (جابر) شيئًا طيلة هذا النهار .. لما سألته عما ينوي عمله بنا قال في غموض:

Books-sea.com

ــ"انتظرا حتى الوقت المناسب .."

ــ"ولماذا لم تتخلص منا ؟"

ــ"لأنني أمقت العنف من الطرفين، ولأنكما جاهلان لا أكثر.. لــم تفعلا إلا ما يفعله الفأر الذي يحاول سرقة بعض الخبز لأنه لا يعــرف شــيئًا آخــر .. هذه غريزته وتلك فطرته . لكنكما لستما فأرين .. هذا ما أحاول أن أخبركما به .."

ثــم أخــرج علبة بها بعض الشحم، ولوث أنامله ثم قال وهو يضع يده جوار خدي:

ــ"بعد إذنك !"

ــ"تفضل .."

هكذا لوث وجهي ووجه جرمينال .. بعناية ودقة هذه المرة.. قام بتلويث أيدينا ثم انتخب لنا ثيابًا أكثر قذارة .. هذه المرة كانت هــناك أســتاذية لا شــك فــيها في لمساته، حتى بدت جرمينال كالمتســولين واعــتقد أنني أبدو بصورة أسوأ.. ثم شرح لي كيف نمشي وكيف نتكلم ..

ــــ"هــؤلاء قوم رأوا كل شيء وعرفوا كل شيء، لذا هم لا يــتكلمون تقــريبًا .. قللا كلامكما قدر الإمكان .. مثلاً لو أردت شــراء شــيء راق لــك فلا تسأل عن الثمن كتلاميذ المدارس .. امســك الشــيء بغلظــة وانظر في عيني البائع متسائلاً.. لا تقل شيئًا.. سوف ينظر في عينيك بشراسة ويقول لك (مائة) مثلاً، ولا يــزيد .. عندها تأتي بحركة بذيئة من إصبعك وربما تطلق صوتًا قصيرًا من حلقك .. ثم الق له بخمسين ولا تتكلم .. "

Books-sea.com

ثم فكر حينًا وأضاف:

ـــ"العـــادات الحمـــيدة تقتل هنا .. لابد من أن تبصق على الأرض مـــن حـــين لآخـــر .. تحسس عضوك التناسلي من فوق الثـــياب من وقت لآخر .. هي لابد أن تهرش صدرها ورأسها.. المفروض أن الأول يعج بالبراغيث والثاني بالقمل .. هذه لمسات مهمة وتقلل من النظرات الفضولية لكما"

قـــال لي إننا بصدد جولة يريني فيها ذلك العالم الذي اجهل كـــل شـــيء عنه.. قال إننا حران لو أردنا الفرار لكنه لا يضمن حياتينا لحظة أخرى بعد هذا ...

ـــ"سوف ترتكبان جملة من الأخطاء، ولسوف يمزقونكما في اللحظة ذاتها .."

هكـــذا غادرنـــا الكـــوخ الحقير لنخرج إلى شوارع في غاية الازدحام والفقر .. هناك لمسات تدل على أنه كانت هناك حكومة يومًا ثم تخلت تمامًا عن كل شيء .. في الأزقة والشوارع الجانبية تحدث المشاحنات لأي سبب ومن دون مبرر ..

ـــ"إنهـــا أخلاقـــيات الزحام .. ضع ست دجاجات في عشة ضيقة وراقب كم تصير مهذبة .. لو أن دجاجة واحدة لم تفقأ عين جارتها أو تلتهم أحشاءها فأنا مخطئ .."

سألته وأنا أمسك بيد جرمينال الممتقعة ذعرًا:

ـــ"لماذا تستمرون في التكاثر إذن ؟"

ـــ"لأن التكاثر هو رفاهية الفقراء الوحيدة .. دعك من أن كل هـــؤلاء يعـــتقدون أن واحـــدًا من أبنائهم سيغير كل شيء .. في

Books-sea.com

انـــتظار هـــذا المجهول يتكاثرون، والصبي يسعى بحثًا عن رزقه كدجاجـــة .. لا أحـــد يعرف إن كان قد مات أو أكل أو نام .. في ســـن الحاديـــة عشـــرة يـــتعلم استنشاق (الكلة) وبعد هذا يضطر لارتكـــاب الجريمة كي يتعاطى ما هو أفضل .. طبعًا من يسرقه فقيـــر مثله لأنه لا احد يستطيع أن يسرق منكم .. مستقبل مشرق كما ترى .."

ثم حك رأسه وابتسم:

ـــ"برغم هذا انخفض معدل خصوبتنا كثيرًا .. جيلان كاملان أكـــلا طعامًا ملوثًا ويعج بالهرمونات .. هكذا صار من المعتاد ألا ينجب المتزوجون لكن المحصلة النهائية هي أننا نتزايد بلا توقف على كل حال .. كانت هناك فرق إخصاء ثم انتفت الحاجة لها .."

هتفت جرمينال في ذهول:

ـــ"فرق إخصاء ؟"

ـــ"نعم .. ألم تسمعي عنها ؟.. مجموعات من رجال الشرطة الملثمين يهاجمون الفتيان .. بسرعة وبدقة جراحية يخدرون الفتى ويقطعون حبله المنوي ثم يخيطون الجرح ويفرون .. بهذا يصير عاجـــزًا عن الإنجاب للأبد.. في المتوسط كان يتم تعقيم ثلاثة فتية في الليلة الواحدة "

ـــ"وماذا حدث بعدها ؟"

ـــ"متدينون كثيرون في يوتوبيا قالوا إن هذا حرام .. فلنعتمد علـــى الطعام الملوث ليقوم بالتعقيم بنفسه بدلاً من أن نتحمل نحن الـــوزر ! .. وهكـــذا تـــزايد نشاط تلويث الطعام، وقد تمت زيادة

Books-sea.com

جرعة مادة الجوسيبول في الزيوت التي نتعاطاها إلى أعلى معدل ممكـــن لها، وهذه المادة شديدة الفعالية في قتل الحيوانات المنوية وتدميـــر نســـيج الخصية .. برغم هذا نحن نتكاثر كالبكتريا .. لا تـــوجد طـــريقة للقضاء على البكتريا في العالم مهما استعملت من مضادات حيوية فعالة .. إنها تجد طريقًا دائمًا .. "

سألته السؤال الذي كان يلح علي ليلاً:

ـ"ولماذا لا تثورون ؟"

انفجر يضحك حتى سال دمعه وقال:

ـــ"هـــذا شـــيء يتكرر من حين لحين .. لكن ثورات القرن العشرين التي تحقق غرض الجموع قد صارت تاريخًا بائدًا .. لقد تعلـــم مـــن هم فوق من أخطاء الآخرين .. لن يرى أحد ثانية شاه (إيـــران) الـــذي يحلق بطائرته بحثًا عن بلد يؤويه، ولن ترى جثة (شاوشيســـكو) أو (موســـوليني) معلقة في ميدان عام .. إن النظام الأمني معقد متطور اليوم .. هناك ستة أجهزة أمنية تراقب بعضها ومهمـــة كل منها حماية الحكام .. إن ثورات اليوم هي أقرب إلى (هوجة) ثم تحلق طائرات الهليوكوبتر لتلقي عدة قنابل وتطلق عدة طلقات فيتفرق الجميع .. "

فـــي هـــذه اللحظة اقترب منا رجل رث الهيئة له لحية غير حلـــيقة، وإن كانت ثيابه توحي بأنها زي رسمي غير معتنى به .. ومد يده لنا:

ـ"هل معكما شيء يؤكل ؟"

هز (جابر) رأسه وواصل المشي .. ثم قال:

Books-sea.com

ـــ"إنهم في كل مكان... لا توجد أعمال .. ما لم يجد عملاً في مستعمراتكم بالساحل الشمالي فلا أحد يريد منه شيئًا .. سوف يقضـــي حـــياته يبحث عن بقايا الطعام الملقاة في أكوام القمامة ثم يموت بالدرن ذات يوم فيجدونه جوار جدار .. هذه هي حياته .."

كـــنت في هذه اللحظة قد بلغت قمة التقزز والذهول .. أتذكر (يوتوبـــيا) وبيتـــي والـــدولارات التـــي أبعثـــرها .. أتذكر الشلة والفلوجستين الذي أتحرق شوقًا له. أتذكر كلبي الذي يلتهم ما يشبع خمســـة مـــن هؤلاء يوميًا ... لست مستعدًا لحظة للتخلي عن هذا كلـــه، لكنـــي كذلك لا أبتلع فكرة وجود كل هذا الفقر .. الآن فقط أفهـــم هذه الأسوار العالية ورجال المارينز والمطار الداخلي .. لو تركنا كل هذا لسال هذا الطوفان ليغرقنا ويقتلنا .. لا أعرف كيف وصل الأمر لهذا الحد لكن لابد من أن يستمر ..

جـــرمينال راحـــت تغلي وترتجف .. وراحت تغمغم من بين شفتيها:

ـ"يا الله !.. أريد أن أعود !.. أريد أن أعود !"

ضغطت على يدها كي تخرس ...

* * *

كـــان هناك رجل يقف وسط زحام حوله، ويبيع زجاجات بها سائل ملون مدعيًا أنها العلاج الشافي من الدرن والسرطان .. إنها خلطـــة من الأعشاب صنعها هو ولا يعرف سرها اللصوص في (يوتوبـــيا) كما قال.. إنهم ينفقون مالهم في هراء يبتاعونه بأغلى الأسعار بينما العلم كله هنا ..

Books-sea.com

عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..
عندنا العلم كله ..
هــذه أدويــة لا قيمة لها إلا انها رخيصة !.. أي إنها تعطيك مزية أن تتعاطى شيئًا ولا تنتظر الموت عاجزًا ..
هــناك رجــل يقف أمام منضدة خشبية مقلوبة عليها أجهزة صغيرة .. يقول صائحًا:
ــ"أفضل أجهزة سرقناها من (يوتوبيا).. تعال الآن !... "
وتــوقفت عيــناي على شيء ونظرت لــ جرمينال فوجدتها تنظر لذات الشيء في نهم ..
كــان هــناك جهاز محمول صغير على تلك المنضدة، وعلى بعد متر واحد منا !
لم يكن هذا جهاز محمول ..
كــان فراشًا نظيفًا ووجبة ساخنة وحمامًا وجنسًا وفلوجستين وكئوس خمر وبيتًا وأصدقاء ...
صورة الجهاز الفاتنة لم تفارق ذهني ...
غادرنــا الــزحام فتأخرت جرمينال قليلاً جوار أحد الأزقة، وقالت إنها راغبة في قضاء حاجتها. قال (جابر) بلا مبالاة إن هذا بوســعها ..كل مكان يصلح .. الخدمات الصحية لا وجود لها لأن شــبكة المجــاري صارت تاريخًا .. في الماضي كانت الحكومة تتشــدق بتجديد شبكة المجاري، لكنها أهملتها عندما صارت هناك

Books-sea.com

وســائل أخــرى للاسـتيلاء علــى المال وبعد ما صارت اللعبة واضحة: نحن لا نبالي بكم على الإطلاق .. فلتأخذكم مصيبة ..
غابــت جرمينال في الزقاق لربع ثانية ثم عادت راجفة وهي تصيح:
ــ"إنه مليء بالشباب النائم !"
قال (جابر) ضاحكًا:
ــــ"إنهــم تحــت تأثيــر (الكلة) ومسحوق الصراصير .. لا تخافي.. لو أن ملكة جمال الكون تعرت أمامهم لما حركوا ساكنًا.. هــؤلاء انتهى أمرهم كرجال من زمن .. ربما انتهى أمرهم كبني آدمين أيضًا !"
هكذا عادت إلى الزقاق المليء بشباب لم يعودوا رجالاً.. ...
فجأة سمعت ضوضاء ..
فجــأة رأيت منظرًا يشبه الغوغاء عندما هاجموا الباستيل .. حوالي عشرة رجال يحملون السيوف والعصي ويهرعون نحونا.. وهتف أحدهم وهو يشير لنا:
ــ"هؤلاء سرقوا المحمول !.. أنا رأيت الفتاة تدسه في جيبها!

Books-sea.com

-4-

إذن هي فعلتها !..

متى وكيف ؟.. لم ألحظ هذا قط ...

انقض بعضهم على الزقاق فهرعت ألحق بهم، لأجد جرمينال تســتند إلى جدار، وهي تمسك بالمحمول كأنها كانت تحاول طلب رقــم .. رقــم أمهــا في (يوتوبيا) طبعًا ... كانت ترتجف وعلى وجههــا أعنف رعب رأيته في حياتي .. قطط قليلة أظهرت هذا الهلع وهي محاصرة في ركن زقاق ..

من فرط الانفعال راحت تهرش صدرها وشعرها في فظاظة وبحــركة مضــحكة، كأنها تقول لهم: أنا لست من تظنون .. أنا عامرة بالبراغيث !.. انظروا !!!

همس (جابر) في أذني:

ـــ"أحمقــان !... من الذي يبيع المحمول وبه خط ؟... هذا يسهل اقتفاء أثره !"

خــرج الــرجال من الزقاق وهم يمسكون بجرمينال.. وأقسم أحدهم أنها يجب أن تلقى عقابها هنا والآن وبطريقة الإيذاء المهينة التــي يجــيدها الــرجال مع النساء.. لقد تحول هؤلاء القوم إلى مخلــوقات أبعد ما تكون عن البشر .. قشرة المخ لم تعد تؤدي أي

Books-sea.com

دور معهم .. فقط يتحركون للجنس أو العنف .. الاغتصاب يمنح الشيئين معًا ..

قال (جابر) وهو يقف وسط هؤلاء المسعورين:

ـــ"اســمعوا .. هذه الفتاة جائعة .. أكثر جوعًا منا .. كلكم سرق يومًا بسبب الجوع .. لقد أخذتم ما لكم فاتركوها .. "

ثم هوى على خدها بصفعة ألقت بها مترين إلى الوراء:

ـــ"متسول يسرق متسولاً !.. كانت الحمقاء تحلم بالاتصال بأخيها الذي خطفوه في (يوتوبيا) !"

هــنا فقــط هدأ الجميع، وقال أحدهم وهو يرفع يده بما معناه (انتهى التجمع يا رجال):

ـــ"لن يعود .. سوف يتسلون عليه ثم يقطعون يده ويلقون به في الصحراء، ثم يذهبون لأداء العمرة سائلين الله أن يغفر لهم .."

كانت جرمينال تبكي فعلاً، فازداد بكاؤها حرقة .. هذه جاءت في الوقت المناسب لأنهم تفرقوا وهم يضربون كفًا بكف ..

عــندما ابــتعد الجميع، دنا منها (جابر) ووجه لها ركلة في خصرها أسقطتها أرضًا، وقال:

ـــ"يــا بنت الــ (..)... أقسم بالله أن هذه آخر مرة أحاول حمايــتكما .. قلت لكما أن تتصرفا على مسئوليتكما الخاصة لو لم تنفذا أوامري.."

* * *

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عــنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد

Books-sea.com

أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ـــ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

* * *

نهضنا ومشينا وراء (جابر) في خجل ونحن نبصبص بأذيال وهمـــية .. لقد جاءت إذن اللحظة التي يصفعنا ويركلنا فيها واحد من هؤلاء .. صحيح أنه فعل ذلك كي لا يمزقنا آخرون، لكني لا أقـــبل أن يمد أحد يده علي .. حتى (مراد) و(لارين) .. لقد رددت الصـــفعة لـــ (مراد) ذات مرة .. أصيبت (لارين) بنوبة هستيرية لأننـــي مددت يدي على أبي، فقلت لها إن هذا ليس تفضلاً منه .. أما وقد جاء بي للعالم فعليه أن يتحمل مسئولياته في شجاعة ..

قلت لجابر في اشمئزاز:

ـــ"لو ظننت أننا سنبقى هنا للأبد فأنت مخطئ"

قال دون أن ينظر لي:

ـــــ"لـــم أتوقع هذا .. كما قلت أنتما حران في أن تتصرفا أو تفـــرا لكني أعرف ما سيحدث بعد دقيقة .. لو أردتما البقاء معي فعليكما الامتثال التام لكل ما أقول .. أنا من يضع الخطط ويختار اللحظة المناسبة .. "

أذناه مليئتان بالصماخ ..

أصابع قدمه متقرحة تطل من صندل حقير ..

نظارته ملحومة بالنار ..

Books-sea.com

عينه تالفة ..

غده أسود ..

أخته حيوان مصدور..

طعامه فاسد ..

كتبه بالية ..

أحلامه موءودة ..

أفكاره عتيقة ..

أظفاره مسودة ..

شعره مجعد معجون بالتراب ..

اسمه (جابر)...

قومه رعاع ..

أصدقاؤه حثالة ..

برغم هذا كله يمشي كالبشر ويتكلم كالبشر ..

بـــرغم هـــذا كلـــه لـــم يرتم عند قدمي متوسلاً لي كي أقطع ذراعه..

برغم هذا كله يصفع جرمينال ويهددنا ..

ما أحمق هؤلاء القوم وما أشد سذاجتهم !

* * *

كانت هناك بائعة عجوز تضع كومة من الصحف .. صحف جديـــدة غيـــر مقروءة .. يبدو أنها تبيعها بالكيلو .. وثمن خمسة الكيلوجرامات بيضة كما قالت ..

Books-sea.com

ابــتاع منها بعض الصحف مقابل علبة ثقاب، ثم عاد لنا وهو يتصفح تلك الأشياء .. ناولنا واحدة منها وقال:

ـــ"هذه هي الصحافة الوحيدة الرائجة اليوم .. خليط عجيب مــريض مــن الجــنس والدين والخرافات ونظريات المؤامرة .. غــلاف الجــريدة لا يخلــو من عبارات (كشف المستور) و(في الغــرف المغلقة) و(الجن) و(الاغتصاب) .. الخ .. مع تلميح عام يوحــي بأن كل النساء عاهرات وكل الرجال قوادون .. لابد من عدة صور عارية من المجلات الأجنبية، مع وضع علامة سوداء علــى العينــين، كــأنهم لا يريدون فضح البريئات صاحبات هذه الصــور .. وبــرغم جــو الانفلات الجنسي العام فإن العاهرات الفقيــرات قبيحات كالأبالسة، لهذا يبتاع الشباب هذه الجرائد بحثًا عن فتيات حسناوات نظيفات لا يبصقن دمًا .. أما النوع الآخر من الصحافة .."

وفتح جريدة أخرى وأردف:

ـــ".. فهــو عــبارة عن رسائل حب موجهة للحكام .. هذه يصدرها قوم من يوتوبيا وسواها كانوا منا ثم سمح لهم الحكام بأن يعيشوا هناك، مفعمين بعرفان بالجميل وامتنان وتهيب يبلغ درجة العبادة .. هذه مشاعر تفوق مشاعر كلب وضع سيده أمامه خروفا مشويًا ينز منه الدهن .. لهذا يكتبون كلامًا لا يعني أي طرف ولا أحد يقرؤه إلا الحكام.. بالواقع لا يقرؤه الحكام لأنهم مطمئنون له. هــذه المقــالات نوع من بصبصة بذيل فكري. فيما مضى كانت هــناك معارضة وكانوا يهتمون بمهاجمة هؤلاء الكتاب، ثم فهموا

Books-sea.com

أن تــدخلهم في رسائلَ الحب هذه قلة ذوق .. كأنك تقرأ خطابات غير موجهة لك !"

ثم أضاف وهو يطوح بالجريدة:

ـــ"هذه الصحف سلعة ممتازة للف الأشياء... كما أنها حلت مشاكل غياب المياه !.. "

لم أكن ذا مزاج للمزاح، فقلت له:

ـ"ماذا تنوي عمله معنا ؟"

ـ"سأرجعكما إلى (يوتوبيا) طبعًا .. لا نية لي في قتلكما .."

ـ"وكيف ؟"

نظر لي في غموض ولم يتكلم ..

Books-sea.com

Books-sea.com

الجزء الرابع

الفريسة

Books-sea.com

-1-

قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...

أعرف أنني سأموت بعد يوم واحد. لا أكثر فلا تقل العكس .. لا تكـــرر هـــذا الهـــراء وإلا طعنـــتك بمطواتي. دعني أحلم مرة أخيرة..

كـــنت أكـــرههما كالصراصير . من الجميل أن تكره بصدق وحـــرارة. منذ دهور لم أكره شيئًا بهذا الصدق .. كل شيء ألقاه بعاطفـــة اشمئزاز عميقة لكن لا كراهية. أنت لا تكره البصاق .. فقط تشمئز منه ..

من الجميل أن تكره ...

برغم كراهيتي تلك – وربما من أجلها – لا أنوي قتلهما ..

هما تحت رحمتي تمامًا ولو فتحت فمي فلن يطول الأمر قبل أن أراهمـــا قطعًا من اللحم المفروم تأكلها الكلاب لو كانت هناك كلاب.

لكني بالفعل لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

هـــذه هـــي النقطة التي تحدد كل شيء .. الدليل الوحيد الذي يخبرنـــي أننـــي ما زلت آدميًا ولم أتحول إلى ضبع. إنني في هذا

Books-sea.com

Books-sea.com

أتفوق عليهما .. أتفوق على أهلي وجيراني .. أتفوق على ما كنته أمس ..

لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ..

الأهم أن كل لحظة تشعرني بأن وجوه التشابه بيننا قوية جدًا

كلانا هنا وهناك نعشق العنف ..

كلانا هنا وهناك نحب المخدرات ..

كلانا هنا وهناك نرى أفلام الاغتصاب في نهم ..

كلانا هنا وهناك نتكلم عن الدين طيلة الوقت ..

هناك يتعاطون المخدرات ليفروا من الملل ..

هــناك يحترفون الدين لأنهم يخشون أن يضيع هذا كله، وهم لا يعرفون لماذا ولا كيف استحقوه ...

هنا نتعاطى المخدرات لننسى عذاب اللحظة ..

هــنا نحتــرف الدين لأننا لا نطيق أن تكون معاناتنا هباء بلا ثمن .. العقل البشري لا يتحمل فكرة مروعة كهذه وإلا جن ...

لهذا لا أريد دمًا .. لا أريد قتلى ...

ولكن كيف أفعل هذا بينما (سمية) تزوم كضبع غاضب ؟

* * *

الشخصــية المصرية قد لاقت الكثير من المرمطة في المائة عــام الأخيــرة حتى صارت كزوجة عاملها زوجها بتوحش عدة أعــوام، من ثم أصبحت هي ذاتها أقرب إلى الوحشية والشراسة. وكلمــا زاد الجهــل قلــت سيطرة قشرة المخ على السلوك، وهذا يجعل الجرائم التي ترتكبها الطبقات الدنيا حيوانية بالمعنى الحرفي

Books-sea.com

للكلمــة ..وفي النهاية يقف القاتل ناظرًا لعدسات الصحافة النهمة بعينين غبيتين زائغتين ويكتفي بترديد: (أصل الشيطان وزّني)..

* * *

(سمية) جاءت في الخامسة عصرًا إلى كوخي ..

كانــت ثملــة أو هذا ما قدرته من مشيتها المترنحة ولسانها الثقــيل. جلست القرفصاء على الباب مباعدة ساقيها لتتفادى بركة ماء آسن صغيرة هناك، وراحت تهرش شعرها بعنف ...

قالت وهي تنظر لي بعينيها القاسيتين الصغيرتين:

ــ"أنت كاذب بن كاذب .."

كنت أعرف ما تريد قوله، لكني تظاهرت بالغباء وسألتها عما هنالك . فقالت:

ــ"أنت تعرف أن الفتى ضربني على عنقي .. بعدها لم أشعر بشــيء .. لكننــي أعــرف جــيدًا أنه ضربني ... أنت كذاب بن كــذاب.. قلــت إننــي ســقطت دون أن يلمسني، ولولاك لمزقه الرجال.."

قلت وأنا أجلس القرفصاء بقربها:

ــ"أنا رأيتك تسقطين ولم أر أنه ضربك كما تقولين"

كانــت غبــية حيوانية .. لن اندهش لو قضت حاجتها وهي جالســة حــيث هــي... حيوان بليد يجلس هناك على عتبة داري ويهرش رأسه بلا توقف ..

ــــ"لــم استطع أن أعمل يومين كاملين .. أحيانًا أشعر كأنه أطار من عقلي برجين .. عمي يضربني بلا انقطاع .. "

Books-sea.com

ثم قالت في حزم ووجهها القبيح يتقلص:

ـــ"سوف أخبر عمي أن الرجل ضربني .. السرجاني سوف يأخذ بثأر ابنة أخيه .. "

نعـــم .. السرجاني لا يرحم من يتلف بضاعته .. أنا أعرف هذا.. كله إلا عدة الشغل .. السرجاني يغار على (عزة) .. يحمل مطـــواة قـــرن غـــزال يمكـــنه أن يرشـــقها في زجاج نظارتي. (السرجاني) الضخم يشتهي (عزة) .. السرجاني أخذ قرنيتي مني

ملت على سمية وقلت همسًا:

ـــ"ســـمية.. أنا أعرف هذا الفتى .. بيني وبينك هو صاحب مزاج خاص .. هناك رجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى .."

قالت في دهشة:

ـــ"كـــل الرجال لا تكتمل لذتهم إلا بضرب الأنثى، والسبب أنهم أنجاس وأولاد (...)"

ـــ"لـــيس كـــل الضـــرب سواء .. الضرب الذي تتلقينه من الزبائن يختلف عن تلك الضربة القوية على جذور العنق .. الفتى صـــاحب مـــزاج يحب أن يضرب الفتاة حتى تفقد وعيها وتصير عجينة لينة بين يديه .. وقد صارحني بهذا، وهو مستعد أن يدفع.. والغاوي ينقط بطاقيته "

وأجريت حسبة صغيرة على أصابعي:

ـــ"أنـــت لـــم تعملي يومين .. لنقل إن هذا معناه مائتين في اثنـــين.. أربعمائة جنيه كاملة .. سوف نضيف مائة من أجل الألم

Books-sea.com

الـــذي تشعرين به .. إذن هي خمسمائة جنيهًا لك وحدك .. بما أن عمك لن يعرف شيئًا فلن يأخذ شيئًا .."

ضحكت ضحكة رقيعة متوحشة .. وقالت:

ـــ" خمسمائة جنيهًا لي وحدي ؟"

ـــ"نعم ... "

ـــ"وأنت ؟"

ـــ"أنا مستفيد طبعًا .. لهذا أدافع عنه .. من واجبي أن أوفر لـــه مـــزاجه مـــا دام يدفـــع .. إنه – بيني وبينك – يسرق سكان يوتوبيا. لهذا معه مال كثير ومعه فلوجستين .. "

ـــ"فلوك ؟"

قالتها بنظرة حالمة تسبح في سموات التأمل الكيميائي..

ـــ"نعم .. فلوك .. تصوري هذا ؟"

ـــ"هيء هيء هيء ..."

تركتها حيث هي وهرعت إلى داخل الكوخ .

كان الفتى جالسًا على الأرض ينظر إلى السقف شارد الذهن، بينما الفتاة تجلس جواره وقد أراحت رأسها على كتفه. قلت له في عصبية:

ـــ"اسمع .. هل معك فلوجستين ؟"

ـــ"أنت تعرف أنك أخذت كل ما كان معي .."

ـــ"هل معك نقود ؟"

قالت الفتاة وهي تعبث في حذائها:

ـــ"معي .. كم تريد ؟"

Books-sea.com

ـ"هاتي خمسمائة جنيه.. بسرعة !"

ناولتني ورقة نقد فئة خمسمائة، فكومتها في يدي وخرجت إلى حيث كانت سمية جالسة هناك القرفصاء تردد بلا توقف كأنه لم يكن هناك أي حوار قبل هذا:

ـ"هو ضربني .. ضربني .. وأنت كذبت .. لولاك لمزقه السرجاني"

دسست الورقة في يدها وقلت:

ـ"هي لك وحدك .. قلت لك إن الفتى صاحب مزاج .. فقط لا تقحمي السرجاني في الموضوع. الفتى قد يطلب منك خدمة أخرى اليوم أو غدًا وسيدفع ما تريدين"

ـ"رقبتي !"

وتحسست عنقها، وبدا أن هذه الدعابة السخيفة السطحية راقت لها، فراحت تضحك بلا انقطاع, ثم أفرغت أنفها على الأرض وابتعدت ....

لا تنكر أنني أجيد معالجة الأمور الصعبة ... سوف تعود لتطلب المزيد لأن الابتزاز لعبة من تعفنت روحه، لكني آمل أن يكون الفتى وفتاته قد عادا لعالمهما قبل ذلك ..

Books-sea.com

-2-

في أوائل القرن الحادي والعشرين، وفي آخر إحصاء أمكن عمله، كان هناك 35 مليون مصري يعيشون تحت خط الفقر، وكذا كانت البطالة التي وصلت إلي أعلي معدلاتها العالمية (10 ملايين عاطل).. لاحظ أن 78% من مرتكبي الاغتصاب عاطلون.. أي أن جريمة الاغتصاب هي في الحقيقة اغتصاب للمجتمع. دعك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التي تلعب في أي مجتمع دور قضبان الجرافيت في المفاعلات الذرية .. إنها تبطئ التفاعل ولولاها لانفجر المفاعل .. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار ..

وهذا هو ما حدث بالضبط، لكن الانفجار لم يقض على الطبقة الثرية .. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين ..

فقط أدركت الطبقة الثرية أنه لا حياة لها ما لم تنعزل بالكامل، وبنفس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقيمون الحفلات الماجنة بينما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجي. (قناع الموت الأحمر).. أين قرأت قصة تحمل هذا العنوان ومتى؟ ومن كان كاتبها ؟.. لا أذكر ..

Books-sea.com

قــرأت كثيرًا جدًا .. قرأت كل شيء .. حتى أذابت الحروف بعضــها ... وحتى صرت لا انتمي للأغيار ولا انتمي ليوتوبيا .. فــي كــل موضع أنا غريب مختلف شاذ أحمق غير متكيف غير مندمج...

هل كان في وسع أحدهم منع هذا ؟

لا أعــرف .. أنا لست اقتصاديًا ولا سياسيًا .. دعك من أنني لم أتلق تعليمًا منتظمًا منذ دخلت الجامعة المجانية ..

فقــط كانــت هــناك مؤشرات مخيفة وكان على الجميع أن يتنــبهوا لها.. عندما تشم رائحة الدخان ولا تنذر من حولك فأنت بشكل ما ساهمت في إشعال الحريق ..

عــندما أفحص صحف العشر السنوات الأولى من القرن أشم الكثير جدًا من الدخان .. أوراق الصحف تفوح برائحة الدخان .. فلماذا لم يفعل أحد شيئًا ؟

لأن الجميع تواطأ علينا ..

الجميع تواطأ علي أنا كي أعيش بلا مأوى ..

بلا مأكل ..

بلا مشرب ..

بلا ثياب ..

بلا سقف ..

بلا حبيبة ..

بلا كرامة ..

بلا أسرة (باستثناء صفية)..

Books-sea.com

بلا ثلاجة ..

بلا جهاز هاتف ..

بلا جهاز تلفزيون ..

بلا ربطة عنق ..

بلا أصدقاء ..

بلا حذاء ..

بلا سراويل ..

بلا فلوجستين ..

بلا واق ذكري ..

بلا أقراص للصداع...

بلا مؤشر ليزر ..

وأخيرًا بلا أحلام ..

يــومًا مــا سأموت ولسوف أعود لهم في صورة عفريت أو شــبح ولســوف اجعل حياتهم جحيمًا .. لن يكون أحدهم في مأمن مهما توارى بعيدًا عني ..

لكني لن أقتل هذين ...

* * *

الفتى كان جالسًا لا يعمل شيئًا ..

قلت له بلهجة آمرة:

ـــ"أنت هنا تأكل من طعامي وتنام تحت سقفي، فلابد من أن تجرب أن تجد قوت يومك .."

Books-sea.com

نظـــر لـــي فـــي تحد . يتمنى ان يمزقني لكنه تحت رحمتي بالكامـــل، لهـــذا يصمت .. لو كان يملك شيئا واحدًا محترمًا فهو الذكاء. قال لي:

ـــ"معنا بعض المال .. فهل هذا ما تريد ؟"

قلت في اشمئزاز:

ـــ"لا أريد شيئًا من مالك .. أريد أن تساعدني.."

كان هناك الكثير من العمل في شبكة مترو الأنفاق، لكني لن أطلعـــه علـــى شيء منها. لو عاد هذان لعالمهما فلا أريد أن أجد السُـــلطات تقـــوم بسد شبكة المترو بالكامل بالخرسانة .. سيكون معنى هذا أن نختنق ...

تلـــك الشـــبكة هي عالمي الخاص الذي أعرف كل شبر منه وأصير ملكًا ...

قلت لـــ (صفية) همسًا وأنا أناولها القنينة:

ـــ"كما قلت لك .. لا تكثري منه ولا تجربيه"

وغادرت الكوخ مع الفتى ماشين وسط أطنان المخلفات وبقايا المجـــاري، وســـط الصـــبية الـــذين يتشاجرون ويقذفون بعضهم بالمخلفات ...

مشـــينا نحو ربع ساعة وسط بقايا المدينة هذه، وأخيرًا وصلنا لســـاحة المعلم (طه) التي تحيط بها السياج. على الباب يلقاك ذلك البلطجي الذي لا أعرف دوره بالضبط، وهو غالبًا يرهب القادمين لا أكثر. يقدم لكل منا مدية . في الداخل مساحة من الأرض تقرب

Books-sea.com

مـــن مساحة ميدان صغير، وهناك نحو خمسين من أمثالنا يعملون بلا توقف.

هـــناك كومة في الركن من الدواجن النافقة . كومة ارتفاعها خمســـة أمتار تقريبًا .. لا رائحة لأنها نفقت اليوم فقط في مزرعة ما خارج القاهرة.

علـــى الكـــومة الثانية تقف مجموعة من النسوة يقمن بإزالة الـــريش .. هـــناك قيزانات ماء ساخن يتصاعد منها البخار. يجب الحذر في هذا الجزء بالذات بسبب الحروق.

ترتفع الكومة الثالثة من جثث الدجاج العارية .. ترتفع في كل لحظة .. لو كان البشر دجاجًا لكان هذا المكان مقبرة جماعية ...

قلت للفتى وأنا أخرج مديتي:

ـــ"تنظف أم تشفي ؟"

نظر لي في حيرة وقد تقلص وجهه اشمئزازًا فقلت مفسرًا:

ـــ"أي تشق البطن وتخرج الأحشاء أم تقوم بتجريد العظام من اللحم ؟"

ـــ"لن أستطيع أن أقوم بهذا ولا ذاك "

نظرت حولي لأتأكد من أن أحدًا لن يسمعني:

ـــ"لا أحـــد يعيش هنا من دون عمل .. عمل قذر .. عمل حرام .. عمل غير قانوني .. ليكن ما يكون .. المهم أن تعمل .. لن أصرف عليك مليمًا بعد اللحظة .."

قال في غيظ وقد أوشك على الانفجار:

Books-sea.com

ـــ"تتحدث عن الإنفاق علي كأننا ننام في قصر ونستحم بماء الـورد ونأكـل نعامًا .. كم يكلفك هذا الفول الحامض ونومنا في عشة دجاج ؟"

صه !... رفعت إصبعي إلى شفتي منذرًا:

ـــ"لو سمعوا لهجتك المدللة هذه ومخارج حروفك لسلخوك بدلاً من الدجاج .. انت تفضح نفسك في كل لحظة !"

هـز رأسه في عناد البغال ثم اتجه إلى الكومة المجاورة التي يعمـل عليها أربعة .. كومة (تشفية) الدجاج .. بالمدية ينزع اللحم عـن العظـام وهو يضع الدجاجة كاملة على حجر أملس .. يلقي باللحم على كومة مجاورة وبالعظام على كومة أخرى ..

خـط تجمـيع لابـد أنه كان سيروق للخواجة (فورد) الذي صـدعونا بالكلام عن عبقريته في ابتكار خطوط تجميع السيارات في القرن الماضي ..

قلت له وأنا امسك بالدجاجة الأولى وأشق بطنها:

ـــ"هـاك ... عندما ننتهي سوف نخرج من البوابة الخلفية وسـوف نأخـذ نصـيبنا .. نحو دجاجة لكل واحد منا .. من أين تحسبنا نحصل على اللحم ؟.. هذا الحفل لا يقام يوميًا .. هناك أيام يكتفون فيها فلا يسمح لنا بالعمل أصلاً"

قال في اشمئزاز:

ـ"دجاج ميت ؟"

أطلقت صوتًا قبيحًا من حلقي وقلت:

ـ"هل حقًا يبالي قومك بالذبح الحلال أيها النصاب ؟"

Books-sea.com

ثـم قلـت لنفسي إنهم على الأرجح يبالون .. يدققون جدًا في ذبـح الدجاج لكنهم لا يدققون بصدد ذبحنا .. لا يسمّون علينا ولا يحسنون قطع الوريد.

راح يـؤدي عملـه معـذبًا مشمئزًا تعسًا كاسف البال حانقًا مغتاظًا ..

لا بـأس .. بعض أنواع الانتقام لا تتضمن القتل وبرغم هذا هي ممتعة شهية ..

جرح نفسه ألف مرة ، وصار الدم الذي يغطي يده خليطًا من دم الدجاج ودمه. دعه يجرب .. دعه يتعلم .. دعه يتألم ...

كـان هناك فنان عالمي اسمه شارلي شابلن.. أنا أعرفه ولا ادري إن كـنت مثلـي أم لا . ذلك الفنان صنع شهرته من إظهار بطلـه الفقير الضعيف ينتصر على الأثرياء وعلى رجال الشرطة. قـال ذلك الفنان ذات مرة: يلقى الأثرياء في أفلامي شر مصير .. يتعثرون وينزلقون فوق قشور الموز، لأن أغلب الناس يحبون أن يـروا الأغنـياء المتغطرسين يفقدون كرامتهم . السبب أن معظم الناس في الحقيقة فقراء ..

تباطأ الفتى أكثر من مرة فقلت منذرًا:

ـ"إنهم يراقبون .. لو رأوك تتكاسل لطردوك شر طردة ولن تأخذ شيئًا .. "

وهكذا ظللنا نعمل نحو الساعة .. لكني لم أكن مستعدًا لقضاء اليوم كله هنا ..

Books-sea.com

-3-

عندما ازداد الزحام وكثرت الوجوه، لم أعد أرى الفتى ..
ربما كان هناك جواري لكنه غارق في الدم والعرق فلا يبدو منه شيء ..
هـنا فقـط أمكنني أن أهرع إلى الباب الخلفي للساحة، وكان (خليل) يقف عليها كالعادة .. نظر لي في دهشة وقال:
ـ"مرة أخرى ؟.. لن أحميك للأبد .."
قلـت وأنا أناوله المدية الدامية (لأنه من الممنوع أن تعود بها لدارك):
ـ"بل تفعل .. إن هي إلا نصف ساعة .. "
ـ"فلوك "
ـ"لك هذا .. أنا أفي بوعودي.."
هكـذا أفسح لي الطريق كي أمر. هو يعرف إنني سأعود من الطريق ذاته ولسوف يسمح لي بالدخول والعمل بعض الوقت قبل أن أتقاضى أجري كاملاً. إنه يقف هنا لمنع هذا الشيء بالذات ...
أركض ركضًا هذه المرة لذا بلغت داري خلال ربع ساعة .. لن أحتاج إلا إلى عشر دقائق ثم أعود في ربع ساعة آخر ..
كانت صفية بالداخل بانتظاري..

Books-sea.com

غسـلت وجهي ويدي بسرعة من آثار دم الدجاج. قد أتحمل القذارة لكني لا أتحمل الدم أبدًا.
فـتاة يوتوبيا فقدت وعيها طبعًا بسبب مزيج دواء السعال مع أبـي صليبة مع الأفيون الذي شربته من يد صفية. لا أحد يتحمل هـذا المـزيج اللعين ما لم يكن قد جربه خمس مرات من قبل. لم تكـن جثة هامدة فأنا لا أرغب في مضاجعة جثة، لكنها كانت في حالة من الاستسلام التام الناعس.
كانت صفية الوفية قد فعلت كما أمرتها .. غسلت وجه الفتاة المتسخ وقدميها القذرتين اللتين صارتا تشبهان أقدام نسائنا..
قلت لها وأنا ألهث بعد ركضي:
ـ"شكرًا يا صفية .. والآن انصرفي .. لن أستغرق أكثر من عشر دقائق"
مسحتْ بأناملها على شعر الفتاة الناعم وقالت:
ـ"خـذ راحـتك .. إن جلدها أملس كجلد الأطفال .. أنت تستحق الراحة .. شقيان .. تحتاج إلى شعر نظيف وجلد أملس .. خذ راحتك ... فليغسل جمالها أدران روحك "
الغريب أنها كانت متأثرة من أجلي، رطبة العينين، ومسلكها أقـرب إلـى حـنان الأمهات .. بدا لي كأنها ترغب في الانتظار لتـرى مـا سأفعله ولتطمئن على أنني سعيد، لكني لا أسمح بتاتًا بشيء كهذا .. صفية سوف تظل نظيفة .. تعرف لكنها لا تسمع.. تسمع لكنها لا ترى .. ترى لكنها لا تلمس ..
غادرت (صفية) المكان فانفردت وحدي بفتاة يوتوبيا ..

Books-sea.com

عاجزة .. غائبة عن الوعي .. لا تقدر على عمل شيء ..

إنه النصر !..

هذا هو النصر الوحيد الذي أستطيع تحقيقه .. قهر هذه الفتاة ليس قهر أنثى بل هو قهر طبقة بأكملها. قهر ظروف ...

سوف ترى على يدي ما لم تره من قبل. أليس فتيان يوتوبيا فتيات لهن شوارب ؟.. ألسنا نحن الفحول الذين ترتجف نساؤهم خوفًا منا واشتهاء لنا ؟.. ألا تتمنى الواحدة منهن بين ذراعي زوجها أو عشيقها أن يغتصبها أحدنا ؟.. ألسنا نحن كابوس رجال يوتوبيا وهمهم المقيم ؟.. أليست الرجولة قمحًا ينضج في شمس المعاناة اليومية ؟

الفتى ملطخ بالدماء في ساحة المعلم طه وسط الدجاج، وأنثاه هنا تحت رحمتي ..

كنت أرتجف من هول الفكرة. توارت (عزة) .. (عواطف).. (نجاة).. توارى حلم ما بعد الجنس ..

انتقامي سوف يكون مريعًا .. انتقامي سيكون جديرًا بأن يكون انتقامًا ..

سوف .....

سوف ...

ماذا يحدث لي ؟

كلما نظرت لوجهها لم أر إلا وجه صفية الأسمر. تلاشت فتاة يوتوبيا المدللة فلم أعد أرى إلا وجه صفية القسيم المفعم بالبؤس برغم هذا ..

Books-sea.com

لقد انكمشت رغبتي تمامًا، وصار جسدي قطعة من الثلج.

فقط رحت أضرب خديها في غلظة وهي تئن ولا تفتح عينيها. أهزها من كتفيها في عنف .. أجذب خصلة شعر هنا وهنا ثم لا شيء .. هذا كل ما لدي ...

لا أستطيع ولا أرغب ....

ماذا دهاك ؟... هل سلطة يوتوبيا عليك مطلقة إلى هذا الحد؟.. هل صارت يوتوبيا تسيطر على هرموناتك وغدتك النخامية وغدتك الكظرية ونسيجك الكهفي وجهازك السبمثاوي؟... هل إلى هذا الحد تغلغلت فيك ؟

أهي سيطرة يوتوبيا، أم هي سلطة ضمير كاسحة تجعلك ترى كل فتاة هشة معدومة الحيلة كأنها صفية أخرى ؟

لن تعرف .. لن تعرف أبدًا ..

فقط أنت موقن من شيء واحد: فلتنم هذه الفتاة في سلام، ولتعد أنت إلى المذبح لتواصل انتزاع أحشاء الدجاج...

عندما عدت إلى ساحة المعلم طه لم أبحث عن الفتى ..

فليذهب للجحيم .. رحت أواصل عملي المرهق في تنظيف أحشاء الدجاج، وبعد ساعات تلاشت الكومة الأولى والثانية والثالثة والرابعة ولم تعد هناك سوى بضعة أكوام يتم نقلها إلى الأسواق ..

بمجرد أن تنتهي كومتك تتجه للباب الخلفي للساحة حيث يقف (خليل). يناول كل من يخرج نصيبه من الدجاج .. مجموعة أشلاء أعتقد أنها تكفي لعمل دجاجة كاملة.

Books-sea.com

مشـــيت بعض خطوات فوجدت الفتى يقف ينتظرني وفي يده نصيبه.

كـــان غارقًـــا في الدم والعرق.. بعض الدم كان دمه هو .. ناولنـــي مـــا فـــي يده بطريقة تقول (ها هو ذا ما أردته .. فخذه واخرس)..

قلت له محاولاً أن يخرج صوتي مزاحًا:

ـ"اليوم تأكل من عمل يدك للمرة الأولى"

قال من بين أسنانه:

ـــ"أولاً كـــف عـــن الدروس الأخلاقية فقد سمعت منها ما يكفينـــي.. ثانيًا أنا لن أذوق هذا الشيء .. لقد عافت نفسي الدجاج للأبد"

وهكذا عدنا صامتين إلى بيتي ..

لـــن يعـــرف ما حدث، لأن الفتاة ستكون (مسطولة) ولسوف تعتقد أن أي شيء رأته أو شعرت به أضغاث أحلام..

لا أريـــده أن يعـــرف .. ليس لأنني أخشاه .. بل أخشى أن يعرف أنني عجزت عن إيذائه عندما كان هذا في وسعي ..

يبدو إنني عاجز عن قتلهما كذلك ..

بونابـــرت وقـــف يومًا أمام الجنود الذين جاءوا للقبض عليه وفتح صدره وقال: أنا هو إمبراطوركم فاقتلوني !.. لكن الجند لم يفعلـــوا .. هيبة الإمبراطور جعلتهم يجثون على ركبهم أمامه وهم يبكون .

Books-sea.com

لكن الفتى ليس بونابرت .. تبًا !... إنه مجرد حيوان شهواني مـــن يوتوبـــيا لا يملك أي قدر من الهيبة .. المشكلة أن يكون قد خلـــق حاجـــزًا نفســـيًا من العبودية داخلي .. المشكلة أن أقتنع أنا نفسي بأنه أفضل وأروع وأكمل وربما أتقى..

أنا عاجز عن قتلهما ..

السؤال الوحيد هو : هل هذا لأن يوتوبيا أقوى مني، أم لأنني أقوى مني ؟

Books-sea.com

-4-

احنا شعبين ..شعبين ..شعبين
شوف الأول فين والتانى فين؟
وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت
انتم بعتوا الأرض بفاسها.. بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر..
والريحه سبقت طلعة أنفاسها
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضرب ببوز الجزمة وبسن الكعب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

السرجاني هو أول من فاتحني في الأمر.

أنـــا لا أحـــب السرجاني فهو من كلفني قرنيتي. صحيح أن الحـــياة اســـتمرت بعد ذلك لأن الخطوة التالية هي أن يفتك أحدنا

Books-sea.com

بالآخـــر.. وأنا لن اقدر على قتله .. إذن الخطوة التالية هي موتي أنا .. لهذا توقفت الأمور عند هذا الحد ..

صحيح .. كل هذا صحيح لكنك لا تستطيع أن تحب من أتلف قـــرنيتك مهما حاولت. هو كذلك لا يحبني لأن (عزة) كانت تميل لي.

الســـرجاني هـــو من جاء لي حيث كنت جالسًا خارج الدار أدخن البانجو جالسًا القرفصاء أفكر.

غرس السنجة التي يحملها في الطين الجاف، وجلس جواري وقال وهو يتناول اللفافة من يدي بلا اكتراث:

ـــ"صباح الطعامة يا أبو جابر"

ونفث سحابة كثيفة من الدخان، وراح يتأمل الرماد المعلق في شكل قمع طويل. وقال كأنه رجل مهموم بعظائم الأمور:

ـــ"هـــذه الفـــتاة التي تعيش في بيتك .. لا أتكلم عن صفية طبعًا.. صفية على رأسنا من فوق .."

ـــ"مالها ؟"

قلتها في اشمئزاز وأنا أعرف ما سيقول حرفيًا ..

قال وهو يعيد لي اللفافة محاذرًا أن يسقط الرماد:

ـــ"تلزمك ؟"

ـــ"ولو لم تكن ؟"

ـــ"اليد البطالة نجسة "

ـــ"تكلم بوضوح يا سرجاني"

Books-sea.com

الموضـــوع مهم فلا مجال لهذه اللغة التلغرافية التي نستعملها منذ عشر سنوات .. لغة من رأى كل شيء ولم يعد يدهشه شيء.. الآن مجال الشرح والتطويل ..

قال لي بهدوء:

ـ"يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لك الكثير من المال بدلاً من أن تكـــون عبئًا عليك. الصنف شحيح وقليل والموجود رديء .. أنت ترى وجه سمية البشع الذي يذكرك بالأبالسة .. هذه الفتاة ستكون مكسبًا لنا معًا.."

قلت في ضيق:

ـ"أنت أخذت عزة .. ألا تكفيك ؟"

ـــ"هذه مهنة شاقة .. مهنة قذرة تبلي ملامح الأنثى وجسدها تمامًا .. لابد من التجديد"

ابتســمت فـــي سري .. لو أردت انتقامًا فأي انتقام أبشع من هـــذا؟.. فتاة يوتوبيا تجد نفسها في هذا الوسط بين هؤلاء. لكني لا أريـــد ذلك .. سمه انتصارًا على نفسي أو انتصار يوتوبيا علي .. فقط أعرف أنني سأحميهما ما دمت حيًا وما داما بيننا ..

قلت وأنا أناوله لفافة التبغ:

ـ"هي لا تحب هذا الكار .. هي حرة يا أخي.."

ـ"كما تحب .."

ثم فكر قليلا وأضاف التهديد الذي عرفت أنه آت لا محالة:

ـــ"بيني وبينك .. نحن لا نعرف من هذان حقًا .. أنت قلت كلامًـــا وألقـــيت لنا ببعض الفلوك لنتشاجر عليه كالكلاب. سمية

Books-sea.com

تحكي قصة مختلفة .. هذان يبدو عليهما الثراء ولتقطع ذراعي إن كانا عاشا يومًا واحدًا من الجوع قبل قدومهما .. من أين جاءا بكل هذا الفلوك ؟... أنت تعرف كما أعرف أن هذين من يوتوبيا .. لا تقـــل لي إنهما كانا يعملان هناك بل هما من أصحاب الدار .. أيام كانـــت هـــناك كلاب كان عندي كلب يحرسني ويأكل من طعامي ويـــنام تحت سقف داري، لكن دعني أؤكد لك أنه لم يبد مثلي في أيـــة لحظـــة !.. عاش كلبًا ومات كلبًا .. الغبي ابن الغبي هو من يخلـــط بـــين الكلـــب وصاحبه. هذان ليسا كلبين .. هذان يملكان الكلاب .. فلماذا جاءا هنا ؟.. يمكننا أن نتخيل !.. "

قلت دون أن أنظر له:

ـ"قصّرْ !"

ـــ"سأقصـــر .. أنت تعمل مع (عبد الظاهر).. لو عرف أن اثنـــين من يوتوبيا يعيشان تحت سقف بيتك فماذا سيفعل ؟.. وماذا عـــن (بيومي) ورجاله ؟.. الكل سوف يرقص طربًا وسوف تأتي المنطقة كلها إلى دارك لأخذ حقوقها .. صدقني يا صاحبي لا أحد يـــريد لك الأذى، ولا أحد يقبل أن تمس شعرة من صفية .. صفية عزيزة علي كأنها .. كأنها سمية ابنة المرحوم أخي .."

قلت في غيظ ساخر:

ـ"نعم .. أنت تحرس سمية وترعاها جيدًا فعلاً .. كلنا يعرف هذا"

نظر لي ولم يتكلم، وانصرف دون أن يعيد لي اللفافة ..

* * *

Books-sea.com

لم أكن أحمل هم (بيومي).. كنت احمل هم (عبد الظاهر)..

بيومـــي وشلته يمثلون الأعداء، وهم خطر في كل وقت وكل زمن، بينما (عبد الظاهر) وشلته هم مصدر حمايتي ونفوذي، ولو انقلبوا علي فأنا ضائع ..

عبد الظاهر كان هناك في أنفاق المترو يناقش خطة البايرول للمـــرة الألـــف .. منذ أعوام وهو لا يكف عن مناقشة هذه الفكرة وأنا أقول له إنه مجنون ..

ـــ"هؤلاء الناس قد يمزحون في كل شيء لكن لا مزاح في البايرول"

ـــ"هـــذا مـــا يجعل الخطة ممتازة، وتضعنا في موقف قوي حقيقي"

قلت له ساخرًا:

ـــ"إن المخدرات أطارت صوابك يا بن الـــ (.....) .. تعتقد أنـــك تكـــافح الإنجليـــز في واحد من تلك الأفلام القديمة الأبيض والأسود .. دعك من هذا الهراء وفكر في كيفية العثور على كلب جديد"

عـــبد الظاهـــر كان بلطجيًا لكنه (جدع) حار الدماء .. ليس مجرد ضبع تثيره رائحة الدم مثل بيومي .. لهذا فضلت أن أكون معه من البداية ..

كـــان بعضـــنا يجلـــس فـــوق عربة مترو يلعب (البرغوتة) والـــبعض جالس في ركن من المحطة يشم الكلة .. إنها الظهيرة لكن أنفاق المترو ليل دائم أبدي .. ربما لهذا تشعرنا بالألفة.

Books-sea.com

جمـــيل أن تعـــرف أن كـــل هؤلاء معك .. يمكنهم أن يهبوا لنصـــرتك لـــو تعرضـــت للخطر .. لهذا أعرف أن صفية سوف تتزوج واحدًا من هؤلاء. لا سبيل لها للحياة غير هذا ....

مخيف بما يفوق الوصف أن ينقلبوا عليك ..

قال لي (عبد الظاهر) وهو يدقق في وجهي بعينيه الواسعتين العسليتين اللتين توحيان بالجنون:

ـــ"هناك كلام كثير عنك يا صاحبي في الآونة الأخيرة .. "

رفعـــت وجهي في توتر ونظرت لوجهه المترقرق في ضوء المشاعل..

ماذا ؟..

قال في ثبات:

ـــ"أولا أنت فررت من مشاجرتنا الأخيرة مع بيومي .."

ـــ"أنـــت تعـــرف أنني ضعيف ولا قبل لي بالانتصار على هـــؤلاء .. كنـــتم تنهـــزمون وكـــان بوسعي أن أبقى، لكنك كنت سترثيني الآن باعتباري شهيد الجدعنة .. هل كنت تفضل هذا ؟.. علـــى الأقـــل أنـــا هنا حي أرزق وأتلقى اللوم منك.. لا تنس أن سليمان مات فلم تستطيعوا الدفاع عنه .. "

لـــم تكن هي أول مرة أفر فيها ولن تكون الأخيرة فلماذا يهتم بالأمر ؟

قال من جديد:

ـــ"وهذان اللذان في دارك ؟.. الكلام كثير عنهما .. يقولون إنهما من يوتوبيا وإنك تنكر هذا في إصرار .. ما الذي تدبره ؟"

Books-sea.com

لا توجد أسرار في هذه المنطقة ... هذا واضح ..
أخشى ما أخشاه يحدث الآن ..
فتحت كفي وأصابعي ورحت أقسم:
ـــ"والله العظيم .. والله العظيم .. أنا لا أعرف من أين جاء هذان .. فقط كانوا سيفتكون بهما وأنا لم ....."
قال مقاطعًا:
ـ"كف عن القسم .. كل الناس تقسم طيلة الوقت .. اسمع .. نحن نريدهما .. سوف نعرف أصلهما وفصلهما .. لو اتضح أنهما من يوتوبيا فلسوف نلعب بهما لعبًا ممتازًا .. لن يجدهما الذباب الأزرق، ولربما ساومنا عليهما .. لو كانا مسكينين مثلنا لوجدنا لهما عملاً وحياة .."
رآني مترددًا فقال في حزم:
ـ"جابر .. فكر جيدًا .. لا تخسر كل شيء من أجل كلبين .. لا أعرف أهميتهما لك لكنهما بالتأكيد ليسا أكثر قيمة من صفية !"
ثم نهض وبصوته الجهوري صاح في الرجال المتفرقين في المحطة:
ـ"هلموا !.. أريد هذه المشاعل في مكان واحد .. أحد رجال بيومي هنا في الأنفاق ومعه بانجو .. من منكم يأتيني به ويظفر بنصف ما معه ؟"
عندما غادرت المحطة كنت أعرف يقينًا أنني يجب أن أتصرف الليلة ..

Books-sea.com

لقد اشتمت أنوف كثيرة الرائحة، وتجمع الذباب حول العسل لو كان ما آويه في داري عسلا.
لو أردت لهما الحياة فليفرا الليلة ..
فليفرا فلا يقع علي لوم سوى لوم الغفلة والغباء ..
الليلة قبل أن يحدث شيء آخر ..

* * *

قلت لهما إنهما سيرحلان الليلة، وخرجت أدبر أمري .. هناك الكثير من الترتيبات يجب أن تتم . عدت لهم بعد ساعتين وكانا مستعدين كما نصحتهما. أحكما مسح وجهيهما بالقذارة وثيابهما صارت أقذر .. الغريب أن صفية أختي بدت نظيفة لامعة براقة وإن لم تبد مسرورة جدًا، حتى خطر لي أنها ربما تميل للفتى ..
لا .. ربما هي تميل للفتاة باعتبارهما من السن ذاتها تقريبًا..
سوف تفقد الصديقة الوحيدة التي ظفرت بها في حياتها ..
قرنيتي الحبيبة .. وحلم ما بعد الجنس ...
أعرف أنني سأموت الليلة فلا تضايقني من فضلك ..
دعني أمارس آخر لحظات لي في الحياة ..
دعني أجرب أن احلم ...

Books-sea.com

Books-sea.com

الجزء الخامس

الصياد

Books-sea.com

Books-sea.com

-1-

سوف نرحل هذه الليلة ..

(جابـــر) اخبرنا بهذا .. قال إن الشكوك تتكاثر والذباب يحوم وعلامات الاستفهام تتكاثف والأقاويل تزداد و.. و ..... إلى آخر هذا الهراء ..

وسوف نرحل هذه الليلة ..

نرحل ؟

ربما إلى أعلى .. ربما إلى أسفل .. ربما إلى يوتوبيا ..

لـــو لـــم نتحـــرك في اتجاه عمودي فهناك أمل في أن نظل أحياء..

سوف نرحل هذه الليلة ..

* * *

عند ساعات المساء الأولى قال لنا إن علينا أن نعد كل شيء. ســـوف يتغيب ساعتين ثم يعود ليجدنا متأهبين. نعد كل شيء ؟.. هل يوجد معنا شيء نعده ؟. بالطبع لا.

لكن (صفية) قالت لنا إن الإعداد هنا يعني المزيد من القذارة .. أحضرت بعض الشحم الأسود وراحت بلمسات أستاذية تضيف القذارة على وجوهنا . أعطتنا ثيابًا أسوأ مما كان علينا ..

Books-sea.com

قلت لها وهي تمسح وجهي:

ـ"ماذا ستفعلين بصدد هذا الدرن ؟"

قالت كأن الأمر لا يعنيها:

ـ"سوف أتعاطى منقوع الأعشاب الذي تعده أم (عبير)، وأدفئ صدري، وفي النهاية سأموت وسط بركة دم .. هذا هو كل شيء .. لكن (جابر) لا يصدق هذا .. يعتقد أنني سأشفى"

ـ"هناك أدوية للدرن ..."

ـ"نعم .. وكلها عندكم .. ماذا تتوقع أن أفعل ؟"

أردت ان أكذب .. أقول لها إنني سأعود وسأجلب لها بعض الدواء من أبي .. أبي الذي لا يمكن تعاطي قرص أسبيرين في أي موضع من مصر إلا عن طريقه، لكني وجدت أن هذه أسخف كذبة ممكنة. يمكنني أن اترك لها تذكارًا لكنه لن يكون علبة دواء.

لما أدارت صفية ظهرها لنا قلت لجرمينال همسًا:

ـ"اسمعي .. أريد أن تغادري الكوخ عشر دقائق.."

نظرت لي في حيرة ثم تقلص وجهها وهتفت مشمئزة:

ـ"هل تمزح ؟... هل هذا هو الوقت المناسب ؟.. "

ـ"لابد لي من تذكار . قلت لك إن لها مذاقًا مختلفًا مثيرًا .. هذه آخر فرصة في حياتي لتجربة هذا المذاق .. لو رحلنا لانتهى الأمر .. "

كان وجهها الآن في أقبح صورة يجمع بين التوحش والاشمئزاز والشراسة. أبشع نمر غاضب رأيته في حياتي :

ـ"نحن تحت رحمتهم يا حلوف !... "

Books-sea.com

ـ"أعرف كيف أجعلها تصمت .. والآن أخرجي !"

نظرت لي في كراهية عمياء. لم أعرف من قبل أنها تغار علي لهذا الحد. أعتقد أن الأمر يتعلق بكبرياء الأنثى أكثر منه بالغيرة. في يوتوبيا تعرف أنني مع فتاة أخرى كل يومين تقريبًا فلا تتكلم، لكن الأمر بدا لها هنا مهينًا خاصة أنني لم ألمسها منذ جئنا.

انفردت بـ (صفية) على ضوء المشعل، ومنذ اللحظة الأولى عرفت ما أريد و....

لا ..

هذا ليس حقيقيًا !

إنها تقاوم بشراسة وعنف .. تقاوم كثور بري هائج.. تخمش .. تضرب .. تركل .. تبصق .. تصرخ .. تولول .. تتشنج .. تبكي .. تسب .. تلعن .. تعض ... كنت احسب الأمر أسهل من هذا بكثير. المفترض أنها ستذوب لفكرة أنني اشتهيتها. رجال الأغيار ليسوا رجالاً حقًا . لقد قضى الجوع والطعام الفاسد والجوسيبول على رجولتهم، ونحن نظفر بنسائهم بسهولة طيلة الوقت في يوتوبيا، بينما يكتفي رجالهم باصطناع الفحولة والجبروت .. أليست الرجولة حيوانًا يحتاج إلى تغذية جيدة ورياضة وشمس ساطعة ؟.. إذن هم لا شيء .. لا شيء ....

لكنها قاومت بعنف وبسالة، وكنت أنا معتادًا على العنف على كل حال لذا قيدتها تقييدًا بشرائط مزقتها من قميصي القديم الذي

Books-sea.com

نزعته. كممت فمها فخرست وأراحني هذا من فيض بكتريا الدرن المنبعث من أنفاسها على كل حال ..

اغتصـــاب مريضة سل !.. سوف تدخل هذه الواقعة التاريخ. ربمـــا أحكـــيها مرارًا للأصدقاء في جلسات الفلوجستين لو عدت سالمًا.

مـــددت يـــدي بقطعـــة قماش إلى سطل من الماء ملأته هي، ورحـــت أبلـــل قطعة القماش وأنظف وجهها وقدميها لتبدو بشرية نوعًا ... بالواقع لم أمس جزءًا منها قبل أن أنظفه بعناية ...

رحت أردد في مزيج من نشوة وكراهية وأنا انتهي:

ـــ"يا لقذارتك !... يا لقذارتك !.. هه هه !"

(صراخ مكتوم .. شهيق...)

ـــ"ليس فقركم ذنبنا .. هه هه ... ألا تفهمين بعد أنكم تدفعون ثمن حماقتكم وغبائكم وخنوعكم ؟.. هه هه ... "

(أنين .. بكاء ..)

– "عندما كان آباؤنا يقتنصون الفرص كان آباؤكم يقفون أمام طوابيـــر الرواتب في المصالح الحكومية . ثم لم تعد هناك مصالح حكومية .. لم تعد هناك رواتب .. هه هه ... "

(شهيق .. حشرجة ..)

ـــ" أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرًا لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. هه هه ... ما ذنبنا نحن ؟"

(دموع .. نهنهة ..)

Books-sea.com

ـــ"عندما هب الجميع ثائرين في كل قطر في الأرض، هززتم أنتم رءوسكم وتذرعتم بالإيمان والرضا بما قسم لكم .. هه هه ... تدينكم زائف تبررون به ضعفكم.. هه هه ... "

(عواء .. غرغرة ..)

ـــ"أنتم اقل منا في كل شيء .. هذه سنة الحياة .. يجب أن تقـــبلوها .. لم يعد أحد قادرًا على تغيير أي شيء.. شيء .. شيء .... شيء .. شيء .. شيء .. هه .. هه .. شيء .. هه .. هه.. شيء .. !"

(توسل مكتوم .. هستيريا ...)

كنت قد انتهيت .. صار جسدي كبالون خاو من الهواء، وفي هذه اللحظة بالذات سمعت جرمينال تقول من وراء ظهري:

ـــ"ألـــم تنـــته بعـــد أيها الخنزير ؟.. أخوها سيعود في أية لحظة.."

ارتمـــيت مـــنهكًا علـــى الأرض جوار الفتاة المنهارة، وقلت لاهثًا:

ـــ"صحيح .. أخوها .."

ومـــن جيبي أخرجت المدية .. المدية التي سرقتها من المذبح عـــندما كـــنا نـــنظف الدجاج . وضعتها تحت عنقها وقلت لعينيها الجاحظتين:

ـــ"اســـمعي .. ولا حرف عما حدث هنا .. لو أن حرفًا قيل فلسوف ....."

هتفت جرمينال:

Books-sea.com

ـ"أنت لن تقتلها .. هي مجرد طفلة !"

ـــ"ومـــن تحدث عن قتلها ؟.. سأقتل (جابر) يا صغيرة .. سترين المدية تمزق أحشاءه قبل أن يفهم معنى كلامك .. ستعيشين وحـــيدة للأبـــد ولسوف تصير حياتك كلها تكرارًا مملاً لما حدث الآن، لأن (جابـــر) لـــن يحضر لك الطعام بعد اليوم.. (جابر) لن يحميك .. "

ظلت صامتة فعدت أكرر السؤال:

ـ"هل فهمت ؟"

وبهـــدوء أزحـــت اللـــثام عن فمها .. وفككت قيودها. أمرت جرمينال بأن تعنى بها قدر الإمكان لتبدو بشرية ..

قالت جرمينال وهي تبصق على الأرض:

ـ"هل استرحت يا ابن الـــ (...) ؟"

قلت في برود:

ـــ"استمري .. أنت تكتسبين لغتهم وعاداتهم يومًا بعد يوم . هذا مفيد لنا كما تعرفين"

Books-sea.com

-2-

إلا الحزن والصمت ..

يمكنك أن تغير معالم جريمتك لكن الحزن والصمت يبقيان ..

هكـــذا ظل (جابر) ينظر في فضول لأخته وهو يعد حاجيات الفـــرار. لكن الفتاة لم تتكلم. إنها باسلة فعلاً.. دعك من أنها كانت صـــادقة في مقاومتها لي وأنا لم أر قط فتاة صادقة في مقاومتها. هـــناك دومًا لمسة تصنع وادعاء. هذه الفتاة كانت تكرهني فعلاً.. تكره أحشائي كما يقول الأمريكان ..

قال (جابر) بعد قليل وعلى وجهه علامات الجدية :

ـــ"أنا لا أثق بقسمكم لأنكم تتعاملون معنا كأننا تحت مستوى الآدمـــية .. وتكذبـــون علينا بالسهولة التي يكذب بها المرء على خروف، لكني سأجرب لمرة واحدة .. ما ستريانه سيبقى سرًا .."

ثم أردف وهو ينهض :

ـ"لقد اضطررت لإجراء صفقات كثيرة .. كلفني هذا مالاً.."

قلت في ضيق:

ـ"إن أبي ...."

رفع يده في كبرياء وقال:

ـ"لا أريد سماع كلمة عن أبيك وحياة أبيك ..والآن هيا بنا ."

Books-sea.com

وتناول أداة غريبة عبارة عن قضيبي خشب متعامدين كأنهما صليب ..

وسط الظلام مشينا في الحارات والأزقة المتسخة التي لا ينيرها إلا مشعل هنا أو هناك..

وسط باعة السمك الفاسد ..

وسط باعة المخدرات الرخيصة ..

وسط باعة الأجساد ..

وسط الشباب الذين يمزقون بعضهم في مشاجرات لا تنتهي .

وسط الأفاقين والنصابين وباعة الأعشاب ..

وسط برك الماء الآسن وبقع الكيروسين ..

وسط الترنشات التي لم تكسح منذ شهرين..

وسط جثث الكلاب التي تم تجريدها من اللحم ..

وسط باعة الأجهزة المسروقة ..

وسط الصبية الجالسين يلعبون القمار على قفص دجاج مقلوب ..

وسط كل هذا نبتعد ..

ثلاثة أشباح لكنها لا تجلب الرعب بل تشعر به..

جرمينال لا تكف عن هرش رأسها وصدرها كأن هذه هي علامة النجاة .. أنا منكم .. أقسم بالله أنني منكم !

* * *

هناك على جدار مهدم جلسنا ..

قال لي جابر وهو يشعل لفافة تبغ:

Books-sea.com

—"أعتقد أن هناك عيونًا كثيرة تراقبنا .. لذا سيتم الأمر كما يلي .. سوف تدور حول الجدار كأنك تريد قضاء حاجتك ثم تركض عبر الخرابة منحنيًا .. هل تعرف عدو الظليم ؟.. لا ؟ .. هذه فرصة كي تعرفه .. عندما تبلغ الناحية الأخرى من الخرابة انتظرنا .. نحن سنلحق بك بذات الطريقة .. "

كنا جالسين في الظلام كما قلت لك، فرأيت (جابر) ينزع سترتي المتسخة عن كتفي فيضعها على قطعتي الخشب فتبدو كأن هناك من يلبسها على كتفيه. فهمت .. مع الظلام والمسافة يشعر من يراقبنا أننا ما زلنا ثلاثة. هكذا وثبت لأدور حول الجدار في اللحظة التي رفع فيها رايته الغريبة مرفرفة.

رحت أركض عبر الخرائب وقدمي تلتوي من تحتي وأنفاسي متقطعة . على الأقل لن تطاردني الكلاب المسعورة لأنه لا وجود لها.. أركض في الظلام لا أعرف إن كان ما أدوس فيه صخورًا أم فضلات بشرية أم جثثًا متعفنة أم مجرد غبار ..

وصلت إلى النهاية فوجدت جدارًا آخر مهدمًا .. وقفت جواره ألهث ...

بعد قليل سمعت صوت لهاث آخر .. ورأيت جرمينال تركض وهي منحنية لتلحق بي ..

وقفت جواري وهي عاجزة عن التنفس ..

سرعان ما ظهر (جابر) وهو يركض بدوره. لقد ترك سترة واحدة معلقة هناك .. وهي تعني أن اثنين يقضيان حاجتهما بينما الثالث ينتظرهما ..

Books-sea.com

هــو ذا يتجه إلى وكر قذر نهبط إليه منحدرين على درجات محطمــة .. وفــي نهايــة الساحة ترى حافلات عتيقة يسيل منها الزيت والكيروسين وتهدر بلا انقطاع ..

ــ"أيوه الساحل الشمالي !.. أيوه يوتوبيا !!"

هذه الكلمات جعلت قلبي ينحشر في حلقي ..

الــوطن .. برغم كل شيء هو الوطن ... أنا الذي لا انتمي لمكان ولا أشخاص ولا مبدأ ..

ســقط قلبي في بطني .. معنى هذا أن هناك سبيلاً للعودة .. لكــن مــاذا عــن الحراس ؟.. ماذا عن المارينز والوصول إلى يوتوبيا ؟.. رباه !..

من العسير أن تقترب من يوتوبيا من دون تصريح .. سوف يفرغ فيك المارينز طلقات بنادقهم ..

لن يصغوا لك وأنت تحكي قصصًا معقدة عن تجربة الرجولة وكل هذا الهراء ..

لو لم تتم مكالمة مع أبي فلا جدوى ...

* * *

الــرحلة تنطلق وأنا أرقب (جابر) الجالس صامتًا في الظلام أمامــي .. كــل شــيء فــي الحافلة يئن ويصر ويهتز.. رائحة الكيروســين تــزكم الأنفــاس. أختلس النظر إلى جرمينال ثم كل الوجــوه التعسة للعمال الذاهبين للعمل في مستعمرات الساحل .. الفــرانين وجامعي القمامة وصائدي الفئران ... كلهم سيء التغذية ممتقع الوجه .. كلهم مهزوم .. كلهم واهن .. كلهم ..

Books-sea.com

ســوف يــبدأ عملهــم فــي ورديات الليل .. سيعملون عشر ســاعات متواصــلة ثــم يعــودون . معنى هذا انهم يقضون بين ظهرانيهم أقل من سبع ساعات ..

من الخير لهم أن يموتوا هنا والآن.

ربــاه !.. فلوجســتين !.. كم أتحرق شوقًا له !.. لو سارت الأمور كما أتمنى فلسوف أتذوقه من جديد خلال ثلاث ساعات أو أقل ..

أرقــب معــالم الطريق ونحن نتجه إلى الاسكندرية .. حتى بعلبة الكبريت المعدنية هذه نحن نتحرك للأمام ...

معــالم الســاحل الشمالي .. وجه (جابر) الصلب يرتسم على معــالم الطريق المظلم .. فقط تلتمع عليه أضواء الطريق من حين لآخر ..

ما هي خطته ؟ ..

الاحتمال الأخطر انه يرتب لنا مقلبًا ما .. ربما يريد التخلص مــنا بعيدًا عن أرضه .. جثتان في الصحراء ولا يعرف أحد من فعلها .. للأسف ليس لدي حل إلا أن أثق به ثقة مطلقة ..

لماذا ينهض هنا ؟... لماذا يتبادل الهمسات مع السائق ؟

إنه يعود ليجلس جوارنا وإن بدا أنه ينتظر شيئًا ..

فجأة توقفت الحافلة وسمعته يقول لنا في الظلام:

ــ"هيا بنا !!"

ماذا تقصد ؟

نحن في قلب اللامكان بالمعنى الحرفي للكلمة ..

Books-sea.com

-3-

الحافلـــة تـــنطلق مبـــتعدة بمن فيها.. بقعة ضوء تشحب في الظلام .. سفينة أمل تمخر مبتعدة لتتركك في جزيرة قاحلة تموت عليها ...

ظـــلام اللـــيل والصحراء ... ظلام الاحتمالات والأفكار .. أعـــرف أننـــي أستطيع قهر (جابر) لو هاجمنا .. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر ..

لكنه يملك عنصر المبادأة والمفاجأة ويعرف الأرض ...

لـــو تســـرعت بالفـــتك به فلربما اتضح أنه بريء وأكون قد أضعت فرصتنا ..

(جابـــر) يمشي وسط الصحراء بين النباتات الشوكية وبقايا الصـــبار .. يلتف وراء تل صغير ويطلب منا اللحاق به، فهرعت وجرمينال إلى هناك متوقعين الأسوأ..

الأســـوأ كان هناك بالفعل وهو رجلان تبدو عليهما الشراسة والقوة ومسلحان .. تبادلت وجرمينال النظرات .. هل حان الوقت أخيرًا ؟

لكـــن ثلاثة الرجال كانوا راكعين على ركبهم ينبشون الرمال بأظفـــارهم ومدي صغيرة على ضوء كشاف واهن .. أحدهم نظر

Books-sea.com

لـــنا في شراسة كما يفعل كلب تفاجئه أثناء النبش عن عظمة، ثم عاود العمل..

قال أحد الرجلين دون أن ينظر لنا:

ـــ"هل أنت ضامن لهما يا (جابر) ؟"

قال (جابر) وهو يواصل الحفر :

ـــ"مثل نفسي .."

ثـــم مد يده ودس أشياء في يد الرجل .. أعتقد أنها مخدرات فالمـــال لا يـــبدو كـــذا .. فـــتحت فمي لأتكلم فصرخ (جابر) في وجهي:

ـــــ"اخـــرس يا (حنفي) !!.. عندما تدخل حاول أن تسرق لنا بعض الفلوجستين .. إن (حبارة) و(شيحة) لم يجرباه قط .."

تلمظ أحد الرجلين حالمًا بينما ظهر الشيء الذي كانوا ينقبون عـــنه.. بوابة حديدية صغيرة مدفونة تحت طبقات من الرمل، وقد أزاحهـــا المدعـــو (حـــبارة) فرأينا درجات خشبية مثبتة في جدار رأسي ..

قال (جابر) وهو يصوب الكشاف إلى داخل هذه البئر:

ـــ"انزل يا (حنفي) أنت و(نفيسة).."

أنا (حنفي) وهي (نفيسة) ؟؟ .. لا أحب الاسمين لكن لا أعتقد أن هذا هو الوقت الملائم. على كل حال اندسسنا في الفتحة ورحنا نهـــبط الـــدرجات الخشـــبية في الظلام غير عالمين إلام تقودنا..

وسمعت (جابر) يقول للرجلين:

ـــ"سأوصلهما لأقرب نقطة ثم أعود .. انتظراني "

Books-sea.com

ثم سمعت جسده ورأيت ضوءه ينزل وراءنا .. فما أن صار بيننا في قاع البئر حتى صحت:

ـ"ماذا يحدث هنا ؟"

قال وهو يتقدمنا عبر ممر مظلم:

ـ"أنفاق !... منذ البداية هناك أنفاق سرية يمكننا بها الدخول إلى (يوتوبيا) لسرقة ما نريد .. من السهل أن تغادر (يوتوبيا) لكن من المستحيل أن تدخلها من دون بطاقة (عبودية).. قام هؤلاء البلطجية بحفر هذه الأنفاق وهم يؤجرونها لمن يدفع .. الثمن يكون مالاً أو مخدرات .. طبعًا من الواضح أنني أقنعت هذين أنكما فقيران مثلنا وأنكما تريدان تجربة السرقة .. لو قلت إنكما من أهل (يوتوبيا) لمزقاكما في اللحظة ذاتها.. "

هتفت جرمينال:

ـ"أي أن هذا النفق يقود إلى ..."

ـ"إلى قلب (يوتوبيا).. جوار ذلك (المول) الكبير الذي نسيت اسمه .."

ـ"إليت مول"

ـ"نعم .. حيث ينتشر أمثالكم كالضباع بحثًا عن فريسة .. سعار الاستهلاك واللعاب يتساقط على الأرضية الزلقة البراقة. بينما العبيد والجواري من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم. عبد يجلب لكم العصير.. جارية تساعدكم في اختيار ثوب مناسب. خصي يقف على باب المرقص. كل شيء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم"

Books-sea.com

قلت في برود:

ـ"تشبيهاتك شاعرية"

أردف قائلاً:

ـ" سوف تخرجان هناك وأعتقد أنكما لن تجدا صعوبة في الوصول لداريكما .."

قلت في انفعال:

ـ"لماذا تفعل هذا كله ؟"

فقد بدا لي مبالغًا بحق في هذا الذي يفعله...

ربما يتضمن المعروف جزءًا سلبيًا هو ألا يبلغ عنا ..هذا سهل .. لكنه تجاوز هذا الحد إلى الجزء الإيجابي .. أنفاق وبلطجية ودفع مال وتسلل ليلي .. الخ ...

لا أحد يفعل شيئًا من غير ثمن .. الثمن قد يكون مالاً .. قد يكون منصبًا .. قد يكون جسدًا .. قد يكون إحساسًا بالتفوق .. قد يكون قصة تحكيها لأصدقائك وعيناك تلتمعان تيهًا .. قد يكون تقديرًا للذات لا تستحقه ..

هناك ثمن دائمًا ...

وأنا لا أقبل الشيء قبل أن أعرف ثمنه...

فكر حينًا .. توقعت ردًا بلاغيًا طنانًا على غرار (لأننا أفضل منكم) أو (لأنني لا أحب الدماء).. الخ .. لكنه اكتفى بأن هز رأسه وقال:

ـ"لأنني أريد ذلك .. "

Books-sea.com

ثـم ابتسـم وغمغم بشيء في الظلام فسألته عما يقول .. قال بصوت أعلى وهو يواصل طريقه:

ـــ"كـان عـندنا شاعر اسمه (عبد الرحمن الأبنودي).. هل سمعتما عنه ؟"

ـ"لا .."

ـــ"بالطـبع لـم تسمعا عنه .. كان هذا الشاعر يقول: احنا شـعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الاول فين والتانى فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت"

لـم أفهـم شيئًا .. فقط أفهم أنه يغلي من الحقد الاجتماعي .. هذا هو كل شيء ..

قلت له في الظلام:

ـ"برغم كل شيء .. أنت إنسان نبيل .. "

لم يرد وواصلنا تقدمنا .. مشينا نحو عشر دقائق..

بقعـة ضوء تتحرك عبر النفق .. تذيب ظلامًا ثم تغيب وسط ظلام جديد ..

صوت الخطوات ..

صوت اللهاث ..

صوت قطرات العرق تتساقط على الصخر ..

* * *

وفـي الـنهاية أدركـت أننا في قاع بئر أخرى وأن درجات صـاعدة تقـودنا للسطح.. هناك صخور مكومة بحيث تسهل لك

Books-sea.com

الوصول لأسفل الدرج ..بصعوبة منعت نفسي من الصراخ فرحا وجرمينال راح صدرها يعلو ويهبط ..

قال (جابر) وهو يشير بالكشاف لأعلى:

ـــ"لأسباب واضحة لن ألحق بكما .. أنتما في أمان الآن .. وداعًـا .. فقـط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا .. فلن أكون موجودًا المرة القادمة .."

قالت جرمينال في تأثر:

ـ"أنت رائع يا (جابر).. شكرًا لك .."

لم يرد واستدار ليرجع وضوء الكشاف يحيط به كأنه رؤيا ..

لابد أنه ظل محتفظًا بتأثره حتى اللحظة الأخيرة ..

لابـد أن ابتسـامته الخافتة لم تفارق شفتيه بينما وجهه يهوي ليتمرغ في التراب ..

لابد أنه لم يذق الدم الذي سال من شدقيه ..

لابـد انـه لـم يدرك أنني التقطت ذلك الحجر وهويت على مؤخرة رأسه بأقوى ما استطعت ..

اضطررت لأن أقلبه على ظهره فسال الدم كالنهر من الفجوة الدامية التي صنعتها منذ ثانية..

عيـنه الـتالفة تنظـر لي في ثبات بينما تحولت نظارته إلى فتات..

الـتقطت المديـة .. المديـة التي سرقتها من المذبح .. من الغـريب أن مديـة أخرى تطل من حزامه .. لابد أنه كان يخافنا بالقدر الذي كنا نخافه به وأراد أن يؤمن نفسه ...

Books-sea.com

صرخت جرمينال في هستيريا:

ـ"لماذا فعلت ذلك ؟.. لقد ساعدنا !"

قلت وأنا أقوم بما يجب أن أقوم به:

ـ"وانتهى دوره عند هذا الحد !.. إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن .. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكار .. "

للأسف لن أستطيع أن أحمل جسده صاعدًا الدرجات .. كما أنه مات على الأرجح فلن يوفر مصدرًا للتسلية .. إذن لم يعد يهمني من أمره سوى هذا الشيء الذي أخذته ولففته في السترة المتسخة التي منحها لي ..

لم يكن هناك غراب .. لم يكن هناك غراب ..

لماذا تذكرت هذا الآن ؟

تركته حيث هو وصعدت الدرجات .. ستكون كارثة لو كان قد خدعنا ..

Books-sea.com

-4-

لكن انتم خلقكم سي الملك
جاهزين للملك..
ايديكم نعمت من طول ما بتفتل ليالينا الحلك
يا عم الضابط احبسنى
سففنى الحنضل واتعسنى
رأينا خلف خلاف..
احبسنى او اطلقنى وادهسنى
رأينا خلف خلاف

عبد الرحمن الابنودى

* * *

فتحة بين الأعشاب يصعب أن يراها من لا يبحث عنها..

تغطي الفتحة قضبان متعامدة جدل أحدهم العشب بعناية بينها

لكننا عندما أزحنا القضبان وأخرجنا رأسينا، شممنا رائحة هواء البحر .. شممنا الليل المخلوط بالعطر واللحم البشري والفلوجستين ..

شممنا رائحة الدولارات وبطاقات الائتمان والخمور الباهظة

Books-sea.com

رأينا أضواء يوتوبيا تحيط بنا .. على بعد خطوات مول (إيليت) المفضل عندي .. أرى لافتته الملونة وزحام السيارات حوله .. نحن إذن في الحديقة الخلفية للمول .. نعم .. أرى تمثال المستحمة العارية الذي طالما حلمت بمضاجعته وأنا صبي ..

حمدًا لله !... لقد نجونا ..

سيكون صعبًا أن نفسر لمن يرانا أننا لسنا من الفقراء المتسللين .. الأصعب أن أخفي هذه اليد التي بدأ الدم يتساقط منها.. لكننا سنقابل مصريين أو إسرائيليين وهؤلاء يمكن التفاهم معهم .. بينما لا يمكن التفاهم مع المارينز الذين يطلقون الرصاص ثم يتكلمون ..

ساعدت جرمينال على الخروج ووقفنا هناك في البرد الذي يبعثه هواء البحر، وسط أضواء المساء الملونة وتعانقنا ..

لقد تمت المغامرة ونجونا !

لقد دخلنا الجحيم وعدنا منه. دسسنا رأسينا بين فكي التمساح وخرجنا ..

قلت لها ونحن نشق شوارع (يوتوبيا) شبه الخالية في هذه الساعة:

ـ"يمكن القول إننا لم نفقد أي شيء .."

قالت وهي تشهق في انفعال:

ـ"سوى ساعات قاسية"

ـ"لابد أنهم قلبوا الدنيا علينا"

ـ"سوف يفهمون ويغفرون"

Books-sea.com

قالت وهي ترتجف كلمات لم أتبينها فسألتها أن ترفع صوتها.. قالت:

ـ" احنا شعبين.. شعبين.. شعبين.. شوف الأول فين والتانى فين ؟ وآدى الخط ما بين الاتنين بيفوت .. ألم يكن شاعره يقول هذا ؟"

ـ"بلى .. وهو صادق على طول الخط !"

* * *

كانت الاحتفالات صاخبة بعودتنا..

في البداية هناك طبقة واهنة من اللوم والتبكيت .. طبقة ذابت على الفور ..

ثم يبدأ الاحتفال الحقيقي بالبطلين العائدين ..

أنهار من الخمر والفلوجستين سالت .. حكيت قصتنا ألف مرة وفي كل مرة أضيف تفاصيل جديدة تثير الخيال .. لقد صرت رجلاً .. ذهبت إلى هناك وعدت بيد أحدهم ..

كنت أحكي لهم عن (جابر) الأحمق .. (جابر) الساذج الذي لم يستطع أن يفهم قواعد اللعبة ..

حكيت لهم عن صفية المسلولة التي قاومت كأنها الملكة كليوباترا . يجب أن يتناسب حجم المقاومة مع قيمة ما يدافع المرء عنه .. بالنسبة لحالتها لم يكن هناك داع لمقاومة من أي نوع..

قال راسم وهو ينفث الدخان:

ـ"يتوقف الأمر على قيمة ما يدافع المرء عنه بالنسبة له وليس بشكل مطلق .. لو رأيت أمي وهي تدافع عن الفأر الصغير

Books-sea.com

الألـيف الـذي تـربيه عندما أراد أبي أن يلقي به في البالوعة، لحسـبتها تدافع عن أيقونة مقدسة .. بالنسبة للفتاة كانت تدافع عن أهم شيء لديها .."

ـ"عن بكارتها ؟"

ـ"بـل عن إرادتها .. عن حرية اختيارها .. هذا هو فأرها الخاص"

أطلقـت سبة بذيئة .. تبًا لك عندما تعبث الماريجوانا بخلايا مخك. إنها تجعل الناس أكثر ظرفًا لكنها تجعلك أكثر تحذلقًا وميلاً للتفلسـف .. تجعلـك ابن كلب حقيقيًا .. لكل واحد منا فأره الذي يعتبره أثمن شيء في العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير لكـنه بالنسبة لك أهم شيء في الوجود. ترى ما هو فأري المدلل الأليف؟

أنا فأري المدلل الأليف!

لوحت بالذراع التي قمت بتحنيطها وتجفيفها:

ـ"في صحة جابر"

ـ"وصفية"

ـ"والسرجاني .."

ـ"أجدع ناس.."

ومـن جهـاز الهـاي فـاي تـدوي أغنية جديدة من أغاني الأورجازم:

"ضعي عنقك على الصخرة المقدسة ..

ضعي حياتك على الصخرة المقدسة ..

Books-sea.com

أنظري لنصل السكين وهو يهبط فوق الوريد الثري

خائفة ؟.. أنا أحب هذا يا صغيرة ..

كـذا أنـت أقوى من الطبيعة ذاتها، لأنك تضخين الدماء في عروقي من جديد ..

أنتشي ..

أفيض ....

في لحظة كتلك أحبك حقًا ..

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة"

وتـنهض ماهي لتطوح بحذاءيها وتأتي بحركات مجنونة .. تمـيل بعـنقها كأنهـا تنيمه على صخرة ... تطوح شعرها يمينًا ويسارًا ..

تسقط على الأرض في وضع استسلام كأنها تتأهب للذبح..

كاهنة يوتوبيا الشقراء.

ترتفع موسيقا الأورجازم ونغيب وسط النيران الخضر ...

"ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك"

Books-sea.com

-5-

قطَـر كـل روائـح الكـون .. قطَـر عبق السراخس في المسـتنقعات التي خطت فيها الديناصورات منذ ملايين السنين .. قطَر رائحة عرق كليوباترا ودماء يوليوس قيصر .. قطَر البخور الـذي أشعله الدراويش في ليالي القاهرة الفاطمية .. قطَر النيران التي التهمت القاهرة فيما حكوا لنا، وقطَر عبق كل غانيات باريس راقصـات الكان كان .. قطَر كل روائح حيتان العنبر وكل أنفاس النمور الآسيوية التي تتسلل في ظلام الأحراش .. قطَر الأحراش ذاتها .. قطَر روائح البانسيه والنرجس والليلاك والزنابق .. قطَر كل هذه الروائح معًا ثم ... ثم ماذا ؟.. نسيت .....

أصحو من النوم ..أفرغ مثانتي .. أدخن .. أشرب القهوة .. أحلـق ذقنـي .. أعالج الجرح في جبهتي ليبدو مريعًا .. أضاجع الخادمـة الأفريقية .. أتناول الإفطار ... أصب اللبن على البيض وأمـزق كـل هذا بالشوكة ..ألقي بالخليط المقزز في القمامة ... أتـثاءب .. أضـحك .. أبصـق ... ألتهم اللحم المحمر .. أدس إصـبعي فـي حلقي .. أدخل غرفة نوم لارين لأفرغ ما بمعدتي علـى البساط .. أضحك .. أدس إصبعي في أذني .. آخذ زجاجة ويسـكي من البار وأجرع منها .. أرقص .. أترنح .. أقف فوق

Books-sea.com

أريكـة .. أتقلـب علَى البساط .. أقرأ الجريدة التي لا تزيد على اجتماعـيات يوتوبيا ...أخرج أنبوب الفلوجستين .. أصب قطرات علـى جلـدي .. أنتشي .. أرى النيران الخضر ... أضحك ... أمشـي عاريًا في الردهة .. ألبس ثيابي .. أرسم على الجدار بقلم الفحـم شـعارات تقـول: اقـتلوا البيض .. أشغل بعض موسيقا الأورجازم ..

سـاعة واحـدة فعلت فيها كل شيء ولم يبق شيء في الحياة يهمني أو أريده !!!!

لكن الهاتف دق ..

كان هذا راسم يخبرني بأمور غريبة:

ـ"هل تعرف أن الطائرات معطلة ؟"

ـ"كلها ؟..لماذا ؟"

حكـى لـي قصـة عجيـبة عن مغامرة قام بها الأغيار من يومـين.. لقد هاجموا قافلة هائلة تحمل البايرول عبر الصحراء .. انـت تعرف أنهم يقومون بإنزاله من حاملات البايرول غربًا. لقد هوجمت القافلة وتم أسر سائقيها . وهو عمل لم يحدث من قبل ولم يتحسـب له أحد. النتيجة هي ارتباك عام. ظل السائقون في الأسر بضع ساعات ثم تم إطلاق سراحهم وقالوا إنهم لاقوا معاملة حسنة

لم يفهم أحد سبب هذه المغامرة ولا جدواها.

فقـط عـندما تـم مـلء خزانات الطائرات وحاولت طائرة (مصـطفى بيه) البونانزا الرياضية أن تحلق لم تستطع.. بالتدقيق فـي الأمر اتضح أن ما في خزانها ليس وقودًا .. لا توجد قطرة

Books-sea.com

بايــرول فــيها. لقــد قــام أحدهم بملء خزانات البايرول بسائل المجاري !.

التحقيق قال إن هذا ما حدث عندما اختطف السائقون.. لقد تم إفراغ الخزانات بالكامل، ثم جاءت عربات كسح الترنشات اللعينة وقامت بملء الخزانات بمحتواها الكريه.

النتيجة هي أن محركات الطائرات تلفت كلها ..

محركات السيارات تلفت كلها. هذا ما اكتشفه من جربوا ملء خزانات سيارتهم بهذا البايرول المغشوش.

قلت لراسم ضاحكًا:

ـــ"كــنت ســأندهش جدًا لو حلقت الطائرات بوقود من الــ (...).."

وانفجرنا ضاحكين ... وتبادلنا ألف نكتة على هذه الفكرة.

قال راسم بعد ما استنفد قدرته على الضحك:

ـــ"كل هذا جميل، لكن الوضع ليس مريحًا على الإطلاق .. إصــلاح الطائرات والسيارات يستغرق وقتًا .. هل تعرف معنى هذا ؟.. معناه أننا معزولون فعلاً !"

معزولون فعلاً..

ظلت الكلمة تتردد في ذهني زمنًا ..

* * *

ازداد الأمــر سوءًا عندما جلس معنا مراد على مائدة الغذاء. قال للارين:

Books-sea.com

ـــ"لا توجد مواصلات .. الغريب أن رائحة الغائط تتصاعد مــن كــل المحركات. رجال المارينز قلقون وقد اتصلوا بوحدات الأســطول الســادس .. لابــد مــن وجود باب خلفي للفرار كما تعــرفين، وهــذا الــباب أغلق بتعطل الطائرات .. وعدوهم بأن يرســلوا لنا بعض طائرات الهليوكوبتر بمجرد أن تقترب الحاملة (جيفرسون) من مياهنا الإقليمية .. هذا يستغرق يومين .. "

رائحة الغائط من كل المحركات ؟.. بدا لي هذا مضحكًا وإن لم أكلف نفسي بالضحك. سألته في عصبية:

ـــ"هــل تتوقع أن يحدث شيء في يومين ؟... نحن هنا منذ دهور .."

قال مراد:

ـــ"هــناك كــلام يتناثر هنا وهناك... ثمة شيء يتحرك في أرض الأغيار .. إنهم يتحركون ضدنا.. "

ـــ"ومــا الجديد ؟.. إنهم يفعلون هذا مرتين في العام ويخبو حماسهم بسرعة .."

ـ"هذه المرة هم أعنف وأكثر تصميمًا وتنظيمًا .. يقولون إن أحــدهم ســاعد اثنــين من يوتوبيا على النجاة من أرض الأغيار وجعلهمــا يعيشــان تحــت سقفه، لكنهما قتلاه وقطعا يده بعد ما اغتصبا أخته العذراء !.. وجدوا جثته في نفق يستخدم للتسلل إلى هــنا. القصــة تســللت إلــى كل كوخ وكل زقاق هناك وأشعلت الــنفوس.. لقــد تحملوا الكثير لكن يبدو أن هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير.. "

Books-sea.com

رحـــت آكـــل محـــاولاً ألا يبدو تعبير مريب على وجهي .. رسمت على وجهي تعبير رجل لم يقطع يد واحد من الأغيار.

قالت لارين في استخفاف:

ـــ" إنهم قد سُلبوا كل شيء وظلوا صامتين فماذا يحدثه موت واحد من فارق ؟.. لا أظن الثورات تقوم لأسباب كهذه .. "

ـــ"بل لا تقوم إلا لأسباب كهذه .. الصخرة تحملت الكثير من الضـــربات لكنها تفتتت عند الضربة الخمسين .. لم تكن الضربة الخمسون هي ما فعل ذلك لكن كل الضربات السابقة .. "

ـــ"هذه قصص أطفال .."

ـــ"وهل الجموع الغاضبة سوى أطفال ؟"

* * *

انتم بعتوا الأرض بفاسها ..بناسها
فى ميدان الدنيا فكيتوا لباسها
بانت وش وضهر...
بطن وصدر.
والريحه سبقت طلعة أنفاسه
واحنا ولاد الكلب الشعب
احنا بتوع الأجمل وطريقه الصعب
والضـــــرب بـــــبوز الجـــــزمة وبســـــن الكعـــــب
والموت فى الحرب..

عبد الرحمن الابنودى

* * *

Books-sea.com

كان اسمه جابر .. وقد كان أحمق لم يفهم قواعد أي شيء...

بشـــكل ما يستحق الفقراء كل ما هم فيه .. إنهم أقل ذكاء من آبائنا .. إنهم ضعيفو الإرادة خاملون .. تركوا نفسهم يُسرقون كل هـــذا الـــزمن من دون أن يحركوا إصبعًا .. هم بهذا انحدروا إلى درجـــة أقـــل من مرتبة الحيوان .. حتى النحل يلدغك لو حاولت ســـرقة عســـله، والدجاج ينقر أظفارك لو حاولت سرقة البيض .. بينما هم ظلوا خائفين صامتين ..

ما دامت الحياة ممكنة فلنبق صامتين ...

ما دام عشاء الليلة موجودًا فلنبق صامتين ..

لهـــذا لا احمل أي تعاطف نحوهم وقد زادتني هذه المغامرة مقـــتًا لهم .. حتى (جابر) هذا – يرحمه الله – كان مجرد متحذلق لا يكف عن الثرثرة ولا يفعل أي شيء ..

(مايـــك رودجـــرز) رجـــل المارينز جاء إلى دارنا ولم يكن متأهـــبًا للمزاح. عرفت أنه يقوم بجولة على كل القصور هنا مع رجـــال فـــي سيارة جيب عسكرية لم تتلفها مياه المجاري. قال إن علينا ألا نغادر بيوتنا إلا للضرورة .. قال إن علينا ألا نقلق . كل شيء تحت السيطرة ..

هـــذه العبارة وحدها (لا نقلق فكل شيء تحت السيطرة) تعني أن نقلق جدًا ..

سأله (مراد) عما هنالك .. فقال إن الفقراء ثائرون .. ثائرون ويتقدمون في جموع منظمة عبر الصحراء ....

ثم أضاف في لهجة ذات معنى:

Books-sea.com

ـ" لا أريد أن أثير ذعر أحد لكن ربما نطلب منكم الفرار في أية لحظة !"

ـ"ومتى ؟"

ـ"عندما تصلنا طائرات الهليوكوبتر التي طلبناها .."

قال له مراد في توتر وقد بدأت شفته السفلى ترتجف:

ـ"يجب أن تحموني .. سوف أدفع لك مكافأة خاصة .."

قال مايك بطريقته الأمريكية التي تستنسخ رعاة البقر:

ـ"أنا أتقاضى راتبي عن حماية يوتوبيا كلها، وهو كاف لي.. لا تقلق"

كدت أصيح في مراد: لماذا ترتجف ؟

لم لا تكون أكثر كبرياء ؟

لم لا تكون أكثر وقارًا ؟

مـــا أتوقعه من أبي – لو كان حقًا أبي – هو أن يغضب ولا يخاف .. يحتقر ولا يرتجف .. يغتاظ ولا يقلق.. يشتم ولا يلوم.. الرحيل ؟...

الشتات ؟

هذا لن يكون .. هذه أرضي وهذا عالمي .. ولدت هنا .. لو كـــان أبي قد سرق هذه الحقوق فهي قد صارت لي بحكم الوراثة، ولـــن أتخلـــى عنها من أجل أمثال (جابر) والمتسولين وعاهرات الأزقة ..

* * *

هرعت إلى البوابات ..

Books-sea.com

لارين تناديني ..

جرمينال تناديني ..

رودجرز يقول لي أن ابتعد ..

لكنـــي أشـــق طريقـــي بين الجند الذين اتخذوا أوضاع تأهب للقتال وأعدوا قنابل الغاز والبازوكا ..

لا أحـــد منهم يجسر على التعرض لي لأنهم يعرفون من أنا، لكنهم يحاولون منعي في غير حماس..

أرفع رأسي لأرمق خارج البوابات ..

فأشهق ..

رأيـــتهم هـــناك على مدى الأفق قادمين .. يحملون المشاعل ويصرخون غضبًا ..

بعد ربع ساعة سيكونون هنا ..

سيكونون بيننا ..

بيومـــي ومتولي وعبد الظاهر والسرجاني وصفية وعواطف وعـــزة ومينا وزينهم وشحاتة وعباس وصفوت وعبد الله ومرسي وعدنان وزلطة و .....

كلهم هنا ....

مايك يقول لي:

ـــ"ابتعد الآن من هنا .. اتفقنا ؟.. إن بعض الطلقات سوف تطفـــئ حماسهم .. بعد أول خمسمائة قتيل سوف ينظرون للأمور بشكل مختلف..."

Books-sea.com

انتــزعت البندقــية الآلــية مــن يد جندي المارينز الواقف جــواري، وصوبتها نحو كتلة البشر القادمة في الأفق .. لم أفطن إلـــى إننـــي لم أجرب هذا من قبل، ولم تفتّ من شجاعتي الضربة القوية التي تلقيتها في ساعدي لدى الارتداد ..

هكذا رحت أطلق النار ..

أطلق النار ..

أطلق النار..

"في لحظة كتلك أحبك حقا ..

ضعي عنقك يا صغيرة ..

ضعي عنقك على الصخرة المقدسة "

أطلق النار ...

أطلق النار..

" سففنى الحنضل واتعسنى

رأينا خلف خلاف..

احبسنى او اطلقنى وادهسنى

رأينا خلف خلاف"

تمت

Books-sea.com

Books-sea.com

تجليات أدبية

كنت أقول لهم:

ـ"هأنتم أولاء يا كلاب قد انحدر بكم الحال حتى صرتم تأكلون الكلاب ..! لقد أنذرتكم ألف مرة .. حكيت لكم نظريات مالتوس وجمال حمدان ونبوءات أورويل وهـ. ج .ويلز ..لكنكم في كل مرة تنتشون بالحشيش والخمر الرخيصة وتنامون ... الآن أنا أتأرجح بين الحزن على حالكم الذي هو حالي، وبين الشماتة فيكم لأنكم الآن فقط تعرفون .. غضبتي عليكم كغضبة أنبياء العهد القديم على قومهم، فمنهم من راح يهلل ويغني عندما حاصر البابليون مدينته .. لقد شعر بأن اعتباره قد تم استرداده أخيراً حتى لو إنني ألعنكم يا بلهاء .. ألعنكم"!

لكن ما أثار رعبي أنهم لا يبالون على الإطلاق..

لا يهتمون البتة..

إنهم يبحثون عن المرأة التالية ولفافة التبغ التالية والوجبة التالية ولا يشعرون بما وصلوا إليه..

الفوتوغرافيا وتصميم الغلاف : أحمد النباد

ميريت